

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ



الخواهر البهية

علمي
شرح الفقاهة الشيعية

الجزء الثاني

تأليف

الشيخ العلامة محمد الدين الأفغاني الصواني رحمه الله
أستاذ الحديث سابقاً بالجامعة العباسية بدمشق

تحت إشراف

الشيخ الدكتور محمد شمس الدين محمد صفي الدين في حلقته العامة
أستاذ الحديث ومدرس الفقه الشيعية بدمشق

قامت بالتمثيل

الجامعة الإسلامية بدمشق



الجواهر البهية

على
شرح العقائد النسفية

الجزء الثاني

تأليف

الشيخ العلامة محمد بن الدين الاففاني الصواتي رحمه الله عليه

استاذ الحديث سابقا بالجامعة الحسينية براندير، سورت

المتوفي ١٣٩٨ هـ الموافق ١٩٧٨ م

قام بتصحيح أخطائه المطبعية و مقابلته بالخطوط وصف حروفه من جديد نخبة من أساتذة الجامعة

تحقيق

فضيلة الشيخ محمود شبير بن محمد سعيد راندير حفظه الله ورعاه

استاذ الحديث ومدير الجامعة الحسينية براندير سورت غجرات الهند

قامت بالنشر

الجامعة الحسينية براندير، سورت، غجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

..... والكلام و هي صفة أزلية عبر عنها بالنظم المسمى بالقرآن
المركب من الحروف ،

صفة الكلام

((الكلام)) : واعلم أن هذه المسئلة من أمهات المسائل الدينية والمباحث الكلامية ، كم زلت فيها أقدام وضلت عن الحق بها أقوام ، و هي إن كانت مشروحة في كتب المتقدمين مبسوبة في زبر المتأخرين المبرزين ، لكن الإمام النسفي أوردما في هذا الكتاب ليتذكر أولوا الألباب بأسلوب عجيب وتحقيق غريب -

الكلام يطلق على معنيين

فقال : والكلام : الكلام يطلق على معنيين إما لفظي وإما نفسي ، أما النفسي فمعناه تكلم الإنسان بكلمات ذهنية وألفاظ مخيلة يرتبها في الذهن على وجه إذا تلفظ بها بصوت محسوس كانت عين كلماته اللفظية، وأما اللفظي فهو هذه الكلمات الذهنية و الألفاظ المخيلة المترتبة ترتيباً ذهنياً منطبقاً عليه الترتيب الخارجي ((وهي صفة أزلية)) : إشارة إلى الكلام النفسي ، فهو للباري سبحانه و تعالى شأنه صفة قديمة أزلية ذاتية قائمة بذاته ، وهو الكلام حقيقة ، وهو غير العبارات ؛ إذ قد يختلف العبارات بالأزمنة والأمكنة والأقوام ولايختلف ذلك المعنى القائم بالنفس، واختلافها لايدل على اختلاف المعبر عنه، والكلام النفسي هو ذلك المعبر عنه ((عبر عنها بالنظم المسمى بالقرآن المركب من الحروف)) : هذا إيماء إلى الكلام اللفظي وهو للحق سبحانه وتعالى شأنه كلمات غيبية ، وهي ألفاظ حكمية مجردة عن المواد مطلقاً، إذا كان الله ولم يكن شيء غيره جل شأنه وعز سلطانه ، وهو الذي عليه المحققون من الأشعرية والماتريدية وهو الذي يجب اعتقاده والإيمان به -

..... و ذلك لأن كل من يأمر و ينهى ويخبر يجد في نفسه معنى ثم يدل عليه بالعبارة ((أو الكتابة والإشارة ، و هو غير العلم إذ قد يخبر الإنسان عما لم يعلمه بل يعلم خلافه ، و غير الإرادة لأنه قد يأمر بما لا يريد كمن أمر عبده قصداً إلى إظهار عصيانه و عدم امتثاله لأوامره ، و يسمى هذا كلاماً نفسياً على ما أشار إليه الاخل بقله : شعر

إن الكلام في الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً
و قال عمر بن الخطاب : إني زورت في نفسي مقالة ، و كثيراً ما تقول
لصاحبك: إن في نفسي كلاماً أريد أذكره لك

((و ذلك)) : يعني ثبوت هذه الصفة أمر لا بد له من دليل العقل و النقل .

دليل العقل على ثبوت الكلام النفسي

أما العقل ((لأن كل من يأمر و ينهى ويخبر يجد من نفسه معنى)) : يعني المعنى القائم بالنفس المعبر عنه بالعبارات المختلفة ((ثم يدل عليه بالعبارة)) : يعني المفهمة لذلك المعنى القائم بالنفس ، و مطلبه : أن الإنسان إذا أراد أن يقول : اسقي الماء ، فإنه قبل أن يتلفظ بهذا اللفظ يجد في نفسه طلباً و اقتضاءً لذلك الفعل ، و ماهية ذلك الطلب مغائرة لذلك الفعل ، و يدل عليه وجوه : الوجه الأول : أن ماهية ذلك الطلب لا تتبدل باختلاف الأزمنة والأمكنة ، والألفاظ الدالة على هذا المعنى تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، الوجه الثاني : أن جميع العقلاء يعلمون بضرورة العقل أن قول القائل : "افعل" دليل على ذلك الطلب القائم بالقلب ، و لا شك أن الدليل مغائر للمدلول ، الوجه الثالث : أن جميع العقلاء يعلمون بضرورة العقل أن قول القائل : "افعل" لا يكون طلباً و أمراً إلا عند اصطلاح الناس على هذا الموضوع ، و أما

كون ذلك المعنى القائم بالقلب طلباً فإنه أمر ذاتي حقيقي لا يحتاج فيه إلى الوضع والاصطلاح ، فتأمل .

((أو الكتابة والإشارة)) : أما دلالة الكتابة فظاهر ، وأما الإشارة فكما يشير الإنسان إلى آخر بيده أن يأتيه بشيء .

الكلام النفسي غير العلم والإرادة

((و هو)) : يعني ذلك المعنى الذي يجده من نفسه ويدل عليه بالعبارة ونحوها ((غير العلم إذ قد يخبر الإنسان عما لم يعلمه بل يعلم خلافه)) : كما إذا أخبر بمجيئ زيد ولا شعور له بذلك بل قد خبر عن شيء وهو يعلم خلافه ، كما إذا أخبر عن مجيئ زيد وهو يعلم أنه لم يحن ((وغير الإرادة لأنه قد يأمر بمالا يريده كمن أمر عبده قصداً إلى إظهار عصيانه)) : فإنه يأمره ويريد أن لا يفعل ليظهر عذره عند من يلومه بضربه ((وعدم امتثاله لأوامره)) : وبالجمله إثبات المغايرة بين كلامه وعلمه وإرادته بين ، فإنه سبحانه أمر أبالهه بالإيمان مع علمه بأنه لا يؤمن وامتناع إرادته سبحانه بما يخالف علمه ، لأنه لو أراد إيمان أبي لهب لوجب وقوعه ، وإذا وجب وقوعه يمتنع أن يكون عالماً بأنه لا يؤمن وإذا كان عالماً بأنه لا يؤمن امتنع وقوعه وإذا امتنع وقوعه امتنع إرادته ((ويسمى هذا)) : يعني المعنى الذي وجد في النفس ((كلاماً نفسياً)) : لأنه المعنى القائم بذات المتكلم ((على ما أشار إليه الأخطل)) : وهو من قدماء الأدباء ((بقوله : شعر : إن الكلام لفي الفؤاد)) : هذا إنما يفيد إطلاق الكلام على ما في النفس .

الاحتجاج بقول عدو الله إذا كان موافقاً لقول رسول الله

ولما كان كلام هذا العدو موافقاً لكلام نبينا ورسولنا احتج به الشارح - قدس سره - فما قال الموفق بن قدامة وابن زفيل المعروف بابن قيم : نحن نستدل في

الحرف و الصوت بقوله تعالى : كهيعص ونحوه و خصومنا يستدلون بقول الاطل النصراني عدو الله ورسوله ، فهو شغب فاسد و هواء بعيد عن الحقيقة بعد الأرض عن السماء و هراء لا يصدر إلا من السفهاء . أما أولا فهو ما قلنا أنفا و أما ثانيا فلأننا أغنانا الله ورسوله من فضله و عنايته من إثبات هذا الشعر و سيأتي في هذا من الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية . ((وقال عمر : إني زورت في نفسي مقالة)) : و قد أطلق الفاروق الكلمة على أجزاء مقالاته المخيلة في خبر يوم السقيفة ، و هذا أشهر من نار على علم ، قال البيهقي : الكلام ما ينطق به المتكلم ، و هو مستقر في نفسه كما جاء في حديث عمر في قصة السقيفة حين قال فيه : و كنت زورت في نفسي مقالة ، و في رواية : هيأت في نفسي كلاما ، قال : فسماه كلاما قبل التكلم به ((و كثيرا ما تقول لصاحبك إن في نفسي كلاما أريد أن أذكره لك)) : و هذا إنما يفيد إطلاق الكلام على ما في النفس . فالإنصاف كل الإنصاف لا ينبغي لمن له أدنى مسكة من عقل أن ينكر وجود كلام نفسي .

دليل النقل من الآيات و الأحاديث على ثبوت الكلام النفسي

و أما النقل فمن الآيات قوله جل شاناه : ﴿ فأسرها يوسف في نفسه ﴾ الآية تدل على أن للنفس كلاما لقوله في نفسه ، و قوله : ﴿ إنا نسمع سرهم و نجوا هم ﴾ و في الحديث : السر ما أسرّه ابن آدم في نفسه ، و قوله : ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا مهنا ﴾ ، أي يقولون في أنفسهم بدليل السياق ، و قوله : ﴿ و اذكر ربك في نفسك ﴾ ، و قوله : ﴿ يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ﴾ ، و قوله : ﴿ ويقولون في أنفسهم ﴾ و قوله : ﴿ يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ ، و قوله : ﴿ ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴾ ، الآيات القرآنية في ذلك كثيرة ، و كل ذلك من أدلة الكلام النفسي ، و من الأحاديث ما رواه الطبراني عن أم المؤمنين أم سلمة أنها سمعت نبينا ورسولنا و قد سأله رجل فقال : إني لأحدث نفسي بالشيء لو

تكلمت به لأحبطت أجري . فقال صلى الله عليه وسلم : لا يلقى ذلك الكلام إلا مؤمن ، فسمى عليه السلام ذلك الشيء المحدث به كلاماً مع أنه كلمات ذهنية ، والأصل في الإطلاق الحقيقة ولا صارف عنها ، وما في الحديث القدسي : (فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي) ، وقد أقر الذمبي بحجية الأخير في ذلك في كتاب العلو ، وبعد هذه الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة لا يمكن لمن له أدنى ذرة من الإيمان أن ينكر وجود الكلام النفسي ، ومن رد أن يكون كلام في النفس رد على تلك الأدلة ، والحامل لأهل الحق على القول بالكلام النفسي هو إجماع التابعين على القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، فخرجوا إجماعهم هذا على هذا الوجه المعقول ، وإلا لما صح قولهم وتسفية أحلام التابعين جميعاً ، لا يصدر إلا من الأحمق أو المنافق ، وأقل ما قيل في ابن زفيل لأنه جاهل ، إنه جماع لأراء الناس من غير أن يعقلها على وجهها ، فالفرق بين ما هو قائم بالخلق والمعنى القائم بالحق سبحانه هو المخلص الوحيد في هذه المسئلة ، فاللفظي حديث والنفسي قديم ، وأشار إلى هذا وإلى ذلك إمام الأئمة إمام المسلمين أبو حنيفة وتابعه أهل الحق . واعلم أن الجماعة قالوا : إن الكلام القائم بالنفس معنى مبائن عن الإرادات والاعتقادات ، قالوا : إن الباري سبحانه موصوف بهذا المعنى ، وقالوا : إن هذا المعنى قديم وقالوا : إنه معنى واحد ، والمعتزلة والكلامية والحشوية ينازعون الجماعة في جميع هذه المواضع الأربعة ، فأولاً ينكرون إثبات معنى مغائر من الاعتقادات والإرادات ، وبتقدير تسليمه ينكرون كونه سبحانه موصوفاً به ، وبتقدير تسليمه ينكرون كونه قديماً ، وبتقدير تسليمه ينكرون كونه واحداً ، فهذا تلخيص محل النزاع . أما الموضوع الأول فقد تقدم بيانه على أحسن الوجه ، وأما الموضوع الثاني ، وهو أن الباري سبحانه موصوف بكلام النفس ، فقال الشارح - قدس الله روحه - :

..... و الدليل على ثبوت صفة الكلام إجماع الأمة،
و تواتر النقل عن الأنبياء و أنه تعالى متكلم مع القطع باستحالة
التكلم من غير ثبوت صفة الكلام ، فثبت أن لله تعالى صفات
ثمانية : هي العلم و القدرة والحياة والسمع و البصر و الإرادة
والتكوين و الكلام ، و لما كان في الثلاثة الأخيرة زيادة نزاع و خفاء
كرر الإشارة إلى إثباتها وقدمها و فصل الكلام ببعض التفصيل ،
فقال أي الله تعالى متكلم بكلام هو صفة له ضرورة امتناع إثبات
المشتق للشيء من غير قيام مأخذ الاشتقاق به و في هذا ردّ على
المعتزلة حيث ذهبوا إلى أنه متكلم بكلام هو قائم بغيره ليس صفة
له أزلية ضرورة امتناع قيام الحوادث بذاته تعالى ليس من جنس
الحروف والأصوات

الدليل على ثبوت صفة الكلام لله تعالى

((والدليل على ثبوت صفة الكلام إجماع الأمة)) : و المحققون من الأشاعرة و
الماتريدية متوافقون على ذلك و هو صراط مستقيم . ((و تواتر النقل عن الأنبياء)) :
و الذي يدل عليه مما ثبت عند الجماعة تواتر إجماع الأنبياء فإنه قد تواتر عنهم
أنهم كانوا ينسبون له سبحانه الكلام ، فيقولون : إنه سبحانه أمر بكذا و نهى عن
كذا و أخبر بكذا ، و كل ذلك من أنواع الكلام ((و أنه تعالى متكلم)) : و اتفاهم على
أنه سبحانه متكلم و ثبوت نبوتهم غير متوقف على كلامه سبحانه ؛ لأن الأنبياء إذا
ادعوا النبوة و أظهروا المعجزة على وفق دعواهم يعلم صدقهم من غير أن يتوقف
العلم بصدقهم على كلامه سبحانه فيجب الإقرار بكلامه - جل شأنه - ((مع القطع
باستحالة التكلم من غير ثبوت صفة الكلام)) : إذ لا صفة من غير قيامها بالموصوف،

فإن المنفصل لا يصلح صفة لما انفصل عنه إلا تجوزاً فما يقول به من يقول : إن كلام الله سبحانه قائم بذاته وانه صفة له و الصفة لا تقوم إلا بالموصوف فهو حق يجب قبوله و القول به ، فتدبر . ((فثبت)) : يعني من جميع ما سبق ((ان لله صفات ثمانية : هي العلم ، والقدرة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والإرادة ، و التكوين و الكلام)) : فالقدماء على هذا تسعة : الذات العلية ، و قدمها ذاتي ، و الصفات المقدسة و قدمها بقدم الذات ، و عند الأشاعرة ثمانية لأنهم لا يثبتون صفة التكوين ، و عند المعتزلة لا قديم إلا الذات ، و عند بعض قدماء الحنفية القدماء كثيرة لكثرة الصفات الثبوتية عندهم على ما يأتي ، و عند الفلاسفة الممكنات القديمة كثيرة جداً ، و اتفق الكل على اختصاص الواجب سبحانه بالقدم الذاتي ، ((ولما كان في الثلاثة الأخيرة)) : يعني الإرادة و التكوين و الكلام ((زيادة نزاع)) : بين طوائف الأمة ((كرر الإشارة إلى إثباتها)) : إثبات الثلاثة الأخيرة ((و قدمها)) : إثبات قدمها فالمضاف محذوف ((و فصل الكلام)) : في الثلاثة الأخيرة ((ببعض التفصيل)) : و قدّم الكلام من بينها لزيادة النزاع و البحث فيه حتى سعى به علم الكلام فقال :

والله سبحانه متكلم بكلام هو صفة له

((و هو)) : أي الله سبحانه ((متكلم بكلام)) : اتفق المسلمون على إطلاق لفظ المتكلم على الله - جل شأنه - إلا أن هذا الاتفاق ليس إلا في اللفظ ، و أما المعنى فغير متفق عليه ، هو صفة له ، قال الشارح بدعوى البداهة ((ضرورة امتناع إثبات المشتق للشيء من غير قيام مأخذ الاشتقاق به)) : و إثباته مجمع عليه و منصوص .

المعتزلة ذهبوا إلى أنه متكلم بكلام هو قائم لغيره ليس صفة له

((و في هذا)) : يعني في قوله : صفة له ((رد على المعتزلة حيث ذهبوا إلى أنه متكلم بكلام و هو قائم لغيره)) : قالوا بحدوث كلامه ، و قالوا : إنه مؤلف من أصوات و حروف و هو قائم بغير ذاته و هو من أقبح الغلط ، و ذلك لأنه محال قيام

الصفة بنفسها و محال قيامها بغير الموصوف بها ((ليس صفة له)) : فهم في الواقع منعوا أن المؤلف من الحروف والأصوات صفة الله سبحانه ، وهذا محض هذيان ، وقالوا : إن الإنسان لا يقدر أن يعيش وحده ما لم يشتغل كل واحد بإعانة الآخر و ما لم يعرف كل واحد ما في قلب الآخر من جهات الحاجات لا يمكنه الاشتغال بإعانتته : فاحتاج الإنسان إلى وضع طريق يعرف به غيره ما في قلبه من فنون الحاجات ، فاصطلحوا على جعل هذه الأصوات المقطعة بهذه التقطيعات المخصوصة معرفة لما في قلوبهم . قالوا : إن الله سبحانه إذا أراد شيئاً وخلق هذه الأصوات المخصوصة في جسم من الأجسام لتدل هذه الأصوات على كونه مريداً لك الشيء المعين ، فهذا هو المراد من كونه متكلماً . أقول : هذا كله جهل ، وسيأتي الرد على هذا الجهل . و جمهور العقلاء يقولون : إن تصور هذا المذهب كاف في الجزم في بطلانه ؛ و هو لا يتصور إلا كما تتصور المستحيلات الممتنعات ، و هذا المذهب مبني في الواقع على إنكار الكلام صفة لله سبحانه ، و هو باطل كما لا يخفى ، و أما الشبهة النقلية العقلية من المعتزلة فسيأتي بيانها مع أجوبتها فتدبر . ((أزلية)) : وأبدية باقية قائمة بذاته لا يفارق ذاته ولا يزايله .

استحالة قيام الحوادث بذات الله

((ضرورة امتناع قيام الحوادث بذاته تعالى)) : و قد دريت بالأدلة الشرعية و العقلية استحالة قيام الحوادث بذات الله الأزلية الأبدية و ذلك بالأدلة المبنية في محالها و مواضعها ، و قد اتفقت فرق المسلمين سوى الكرامية و الحشوية و صنوف المجسمة و المشبهة على أن الله سبحانه منزّه من أن تقوم به الحوادث ، وأن تحل به الحوادث ، و أن يحل في شيء من الحوادث ؛ بل ذلك مما علم من الدين بالضرورة ((ليس من جنس الحروف و الأصوات)) : يعني ليست بحرف و لا صوت منزّمة عن التقدم و التأخر ، و غيرهما من صفات الحوادث . قال أهل الحق : أن كلامه سبحانه معنى واحد بسيط قديم قائم بذاته العلية ، فهم منعوا أن كلامه جل شأنه مؤلف من الحروف و الأصوات . قال الشارح قدس سره :

..... ضرورة أنها أعراض حادثة مشروط حدوث بعضها بانقضاء البعض ؛ لأن امتناع التكلم بالحرف الثاني بدون انقضاء الحرف الأول بديهي ؛ وفي هذا رد على الحنابلة و الكرامية القائلين بان كلامه عرض من جنس الأصوات و الحروف و مع ذلك فهو قديم؛ و هو أي الكلام صفة أي معنى قائم بالذات منافية للسكوت الذي هو ترك التكلم مع القدرة عليه و الأفة التي هي عدم مطاوعة الآلات ، إما بحسب الفطرة كما في الخرس او بحسب ضعفها و عدم بلوغها حد القوة كما في الطفولية . فإن قيل هذا إنما يصدق على الكلام اللفظي دون الكلام النفسي

((ضرورة أنها أعراض حادثة مشروط حدوث بعضها بانقضاء البعض)) : ونبه عليه

امتناع التكلم بالحرف الثاني بدون انقضاء الحرف الأول

((لأن امتناع التكلم بالحرف الثاني بدون انقضاء الحرف الأول بديهي)) :
فالقول بأن الحروف قديمة مثل ما قاله الحشوية و قائدهم أبو العباس أحمد بن تيمية مكابرة للحس و العقل : لأننا ندرك بواسطة الحس و نعقل بالعقل عدم السين قبل تمام التلفظ بالباء في " بسم الله " و نحوه من الألفاظ المتضمنة الحروف يحس فيها بعدم الحرف الثاني من التلفظ قبل تمام التلفظ بالأول ، فالقول بأن الحروف قديمة و معه قائمة بذاته ، هذا على تقدير الأعمية ، فيجب نفيه عنه سبحانه لامتناع قيام الحوادث به سبحانه . قال القاضي أبوبكر الباقلاني في " النقض الكبير " : من زعم أن السين من بسم الله بعد الباء و الميم بعد السين الواقعة بعد الباء لا أول له ، فقد خرج عن المعقول ، و جحد الضرورة و أنكر البديهة ، فإن اعترف بوقوع شيء بعد شيء فقد اعترف بأوليته

فإذا ادعى أنه لا أول له فقد سقطت محاجته ، و تعين لحوقه بالسفسطة ، و كيف يرجى أن يرشد بالدليل من يتوافق في جحد الضروري^(١) فافهم .

الرد على الجنبلة الحشوية

((وفي هذا)) : يعني في قوله : ليس من جنس الحروف والأصوات . رد على الجنبلة الحشوية أبي العباس ابن تيمية وأشياعه ، يقولون : كلامه حرف وصوت يقومان بذاته الرفيعة المقدسة ، فإنه قديم . أقول راداً عليهم : من قال : إن كلام معبوده حرف وصوت قائمان به فهو الذي نحت عجلأً جسدأله خوار يحمل أشياعه على تعبده . قال القاضي أبوبكر ابن العربي في " عارضة الأحوذى " : لا يحل لمسلم أن يعتقد أن كلام الله صوت وحرف لا من طريق العقل ولا من طريق الشرع ، فأما طريق العقل فلأن الصوت والحرف مخلوقان محصوران وكلام الله يجلب عن ذلك كله . وأما من طريق الشرع فلأنه لم يرد في كلام الله صوت وحرف من طريق صحيحة ، ولهذا لم نجد طريقاً صحيحةً لحديث ابن أنيس وابن مسعود ، انتهى كلامه بحروفه . أقول : وأنت تعلم مبلغ استبحار ابن العربي في الحديث وجزء الصوت للحافظ أبي الحسن المقدسي ، لا يدع أي متمسك في الروايات في هذا الصدد لهؤلاء الزائغين . و من رأى نصوص فتاوى العز بن عبد السلام وابن الحاجب و الجمال الحصري والعلم السخاوي ومن قبلهم ومن بعدهم من أهل الحق كما هو مدون في نجم المهتدى ودفع الشبهة وغيرهما يعلم مبلغ الخطورة في دعوى أن كلام الله حرف وصوت قائمان به سبحانه ، وسيأتى نقل بعض النصوص منها . ولا تصح نسبة الصوت إلى الله سبحانه إلا نسبة ملك وخلق ، لكن هؤلاء السخفاء رغم تضافر البراهين ضدهم ودثور لأثار التي يريدون البناء عليها يعاندون الحق و يظنون أن كلام الله من قبيل كلام البشر الذي هو كيفية اهتزازية تحصل للهواء من ضغطه

(١) راجع "الشامل" لإمام الحرمين نجم المهتدى القرشي.

باللهاء و اللسان - تعالى الله سبحانه عن ذلك - و يدور أمرهم بين التشبيه بالصنم أو التشبيه بابن آدم ، أولئك كالأنعام بل هم أضل -

الرد على الكرامية

((والكرامية)) : ذهبوا إلى أن كلامه سبحانه صفة مؤلفة من الحروف و الأصوات الحادثة القائمة بذاته العلي المقدس ((القائلين بأن كلامه عرض من جنس الأصوات و الحروف)) : يعني أن الكرامية و افقوا الحشوية الحنابلة في أن كلامه حروف و أصوات ، ثم فرقوا و سلموا أنها حادثة ، وزعموا أنها قائمة بذاته سبحانه و منعوا أن كل ما هو صفة له سبحانه فهو قديم لتجوزهم قيام الحوادث بذاته سبحانه ((ومع ذلك فهو قديم)) : يعني قديم عند الحشوية الحنابلة لا عند الكرامية ؛ فإنهم لا يقولون بقدمها بل يقولون بحدوثها و هؤلاء الجهال يقولون : إنه استقر بذاته على العرش و ينزل بذاته من العرش ويقعد الرسول في جنبه على العرش ، و إن كلامه القائم بذاته صوت ، و أن نزوله بالحركة و النقلة و بالذات ، و أن له ثقلاً يثقل على حملة العرش و أنه متمكن بالسماء أو العرش ، و أن له جهة واحدة ، وغاية و مكانا ، و أن الحوادث تقوم به ، فلا نشك في زيغهم و خروجهم و بعدهم عما يجوز في الله سبحانه ، و ان ابن تيمية تابع الكرامية في جميع ذلك و أربى عليهم في الزيغ .

من مقالات ابن تيمية في أصول الدين

و من مقالاته في أصول الدين : فمنها : إن الله سبحانه محل للحوادث ، و منها : إنه مفتقر إلى اليد والعين و الوجه والساق و نحوهما افتقار الكل إلى الجزء ، و منها : إن القرآن محدث في ذاته سبحانه ، و منها : أن العالم قديم بالنوع ولم يزل مع الله مخلوق دائماً ، فجعله موجباً بالذات لا فاعلاً بالاختيار . و منها ، قوله بالجسمية و الجهة و الانتقال - و هو سبحانه منزّه عن ذلك . و صرح في بعض تصانيفه بأن الله بقدر العرش لا أكبر و لا أصغر - تعالى الله عن ذلك . و

صنف جزءاً في أن علم الله سبحانه لا يتعلق بما لا يتناهى مثل نعيم أهل الجنة وأنه لا يحيط بغير المتناهي ، وهي التي زلق فيها الإمام : أعني ابن الجويني في البرهان . و منها : إن الأنبياء غير معصومين . و منها : إن نبينا ^(١) ليس له جاه ولا يتوسل به أحد إلا وأن يكون مخطئاً ، و صنف في ذلك عدة أوراق وأنشأ السفر لزيارة نبينا معصية لا تقصر فيه الصلاة و بالغ في ذلك و لم يقل به أحد من المسلمين قبله . و منها : إن عذاب أهل النار ينقطع ولا يتأبد و هذا يخالف كتاب الله . و منها : إن التورات و الإنجيل لم تبدل ألفاظهما ؛ بل هي باقية على ما أنزلت ، و إنما وقع التحريف في تاويلهما ، و له فيه مصنف و هذا يخالف كتاب الله و ألف رسائل و ملأها من الخرافات و الهذيان التي تقشعر منها الجلود و ينفطر منها الصخر الجلمود . فلا نشك في زيغه و خروجه و بعده عما يجوز في الله سبحانه و هذا مكشوف جداً . و قد نقل ابن رجب في طبقاته عن الذهبي في حق ابن تيمية : أنه أطلق عبارات أحجم عنها الأولون الآخرون و هابوا ، و جسر هو عليها فيدور أمره بين أن يكون مصاباً في عقله أو دينه ، و ابن قيم من أتبع الناس في سخافات و حماقاته فتبا لمن يتخذ مثله قدوة ؛ بل وتباً لهذا التابع و هذا المتبوع .

الكلام النفسي صفة منافية للسكوت والآفة

((وهو : أي الكلام)) : يعني الكلام النفسي صفة ((أي معنى قائم بالذات)) : يعني هو صفة أزلية قائمة بذاته سبحانه ((منافية للسكوت)) : قال قدس سره : ((الذي هو ترك التكلم مع القدرة عليه و الآفة)) : قال قدس سره : ((التي هي عدم مطاوعة الآلات إما بحسب الفطرة كما في الخرس أو بحسب ضعفها و عدم بلوغها حد القوة كما في الطفولية ، فإن قيل : هذا)) : يعني كون الكلام منافية للسكوت الآفة ((إنما يصدق على الكلام اللفظي دون الكلام النفسي)) : مع أن البحث في الكلام النفسي .

(١) راجع الفتاوى الحليية في التقى السيكي عن مسئلة سأل عنها الشاب الأوزاعي -

..... إذا السكوت و الخرس إنما ينافي التلفظ ، قلنا : المراد السكوت و الأفة الباطنيتان : بان لا يدبر في نفسه التكلم او لا يقدر على ذلك فكما أن الكلام لفظي و نفسي فكذا ضده ، أعني السكوت و الخرس و الله تعالى متكلم بها أمر و ناه و مخبر يعني أنه صفة واحدة

((إذالسكوت و الخرس إنما ينافي التلفظ)) : و حاصله أن هذا التعريف إنما يصدق على الكلام اللفظي ، و المطلوب تعريف الكلام النفسي ؟ ((قلنا : المراد السكوت والأفة الباطنيتان)) : و ذلك لأن التعريف للكلام النفسي ((بأن لا يدبر في نفسه التكلم)) : يعني لا يريد الإنسان في نفسه التكلم ((أو لا يقدر على ذلك)) يعني يعجز الإنسان ادارة المعني في النفس ((فكما ان الكلام لفظي و نفسي فكذا ضده أعني السكوت و الخرس)) : يعني كما أن مهنا سكوتا و أفة ظاهرين يوجد السكوت و الأفة باطينان ((و الله تعالى تكلم بها)) : بهذه الصفة القديمة القائمة بذاته ، فوجب الاعتقاد أنه سبحانه متكلم بهذا المعنى و قيام المعنى (المسمى بالكلام النفسي) بذاته العلي .

وأما قيام الحروف والأصوات بالحادثة بذاته المقدسة فظاهر البطلان

و أما قيام الحروف و الأصوات الحادثة بذاته المقدس فظاهر البطلان لامتناع قيام الحوادث بذاته سبحانه . قال الشيخ محمد بن يوسف السنوسي في " شرح أم البراهين " : و الكلام الذي يكون بالحروف و الأصوات و لو بلغ غاية البلاغة و الفصاحة ، و كان كمالاً بالنسبة إلى الحوادث الناقصة ؛ فهو بالنسبة إلى مقام الألوهية الأعلى نقيصة عظيمة ؛ إذ فيه رذيلتان : إحداهما : رذيلة العدم الذي يجب للحروف و الأصوات سابقاً و لاحقاً ، و يستلزم حدوث من اتصف به ، و أي

نقيصة أعظم من نقيصة الحدوث الملازمة رتبة الافتقار على الدوام ، و الثانية : رذيلة البكم الذي هو لازم للحروف والأصوات ؛ لأنه مما استحال اجتماع حرفين في آن واحد فضلاً عن الكلمتين فضلاً عن الكلامين بتكلم المتكلم بالحرف و الصوت ، واحتبس عن أن يدل على معلومات له في آن واحد بصفة الكلام المركب من الحروف والأصوات . فلو كان كلام مولانا تعالى بالحروف والأصوات لزمت زيادة على رذيلة الحدوث اتصافه سبحانه بالحبسة التي هي أصل إلبكم عن الدلالة على معلوماته التي لا نهاية لها بصفة الكلام ، بل يلزم الحبسة عن الدلالة به في آن واحد على معلومين له فاكتر . فقد ظهر لك بهذا أن الكلام الذي يكون بالحروف والأصوات و ما في معناه من كلامنا النفسي ملازمان لمعنى البكم فيستحيل اتصافه سبحانه بمثلهما ، فافهم .

((أمر و ناه و مخبر)) : إذ ضرورة العقل بأن لله سبحانه كلاماً بمعنى التكلم ، و كلاماً بمعنى المتكلم به ، وأنه بالمعنى الثاني لم يزل متصفاً بكونه أمراً و نهياً و خبراً ؛ فإنها أقسام المتكلم به .

الكلام صفة واحدة تتكرر بالنسبة إلى الأمر والنهي والخبر

باختلاف التعلقات وكذا سائر الصفات

قال قدس سره : ((يعني أنه صفة واحدة)) : واحدة بالذات وحدة شخصية ، اختلف مشائخ الأشاعرة في كيفية وحدتها ، فذهب بعض مشائخ الأشاعرة و منهم الشارح إلى أنها واحدة وحدة شخصية ، و اختاره الشيخ في رواية ، و ذهب جمهور الأشاعرة إلى أنها واحدة وحدة نوعية يعني يتحقق في نوع واحد و هو الخبر و اختاره الإمام الفخر في " الأربعين " و هو رواية عن الشيخ صرح به في " فصول البدائع " و " إشارات المرام " -

..... تتكثر بالنسبة إلى الأمر و النهي و الخبر باختلاف
 العلاقات كالعلم و القدرة و سائر الصفات ، فان كل منها
 واحدة قديمة و التكثر و الحدوث إنما هو في العلاقات و
 الإضافات ؛ لما ان ذلك أليق بكمال التوحيد ولأنه لادليل على
 تكثر كل منها في نفسها . فان قيل : هذه أقسام للكلام لا يعقل
 وجوده بدونها فيكون متكثرًا في نفسه ، قلنا : ممنوع : بل إنما
 يصير أحد تلك الأقسام عند العلاقات

((تتكثر بالنسبة إلى الأمر و النهي و الخبر)) : ثم إنهم ذهبوا إلى أن تلك
 الصفة الأزلية تنوع إلى أمر و نهي و خبر و استخبار و نداء و غيرها من أنواع الكلام
 ((باختلاف العلاقات)) : إن هذا التعدد بحسب العلاقات فتنوعها هذا لا ينافي
 وحدتها ؛ لأنها ليست أنواعاً حقيقية ، إنما هي أنواع اعتبارية تحصل لها بحسب
 تعلقها بالأشياء ، فتلك الصفة الواحدة باعتبار تعلقها بالمأمور به تكون أمراً ، و
 إن تعلق بالمنهي عنه تكون نهياً ، و إن تعلق بالمخبر به تكون خبراً ، وكذا الحال في
 البواقي و جميع هذه العلاقات تنجزية قديمة إلا الأمر و النهي عند الأشاعرة ،
 فلهما تعلقان صلحيان قديمان قبل وجود المكلفين ، و تنجزيان حادثان بعد
 وجودهم . ((كالعلم و القدرة و سائر الصفات)) : مثل الإرادة و السمع و البصر و
 التكوين ((فإن كلا منها واحدة)) : واحدة شخصية لا اختلاف فيها في أنفسها
 ((قديمة)) : يعني و كذا كل واحدة منها قديمة أزلية قائمة بذاته سبحانه . ((و
 التكثر و الحدوث إنما هو في العلاقات و الإضافات)) : يعني و إنما تختلف باختلاف
 الإضافات العارضة لها من تعدد العلاقات ، فكذا هذه الأنحاء الثلاثة ليست

أنواعاً حقيقية بل أقساماً اعتبارية ((لما أن ذلك أليق بكمال التوحيد)) : أقول : هذا لا يليق بشانك ، أو لم تعلم أن هذه حجة خطابية إقناعية ليست مقدمة قطعية كما هو شأن علم التوحيد والصفات ، ولو سلم فالمحذور عندهم تعدد ذوات قديمة ، وإذا جوزوا قطعاً تعدد في القديم وصفاً ، فالسبعة والألف سيان ، فتدبر. ((ولأنه لا دليل على تكثر كل منها)) : يعني من هذه الصفات من الكلام والعلم وغيرهما في نفسها بلا اعتبار تعدد التعلقات . أقول : هذا أيضاً بعيد عن معرفتك وتبحر علمك ، هذا أيضاً مثل قرينه دليل خطابي إقناعي ، إذ عدم الدليل ليس دليلاً على شيء ، ولا عدم الوجدان على عدم الوجود ، فتفكر .

اعتراض وجواب

((فإن قيل)) : و اعترض عليهم بجملة أمور منها : ((هذه)) : يعني الأمر والنهي والخبر ((أقسام للكلام)) : يعني أنواع ((لا يعقل وجوده بدونها)) : لامتناع حقيقة الجنسية بدون تنوعها ومحصلها ، وحاصله : أنهم قد جعلوا صفة الكلام واحدة ليست أمراً ولا نهياً ولا خبراً وذلك محال ؛ لأن الكلام جنس لها ، ولا يمكن وجود الجنس إلا في ضمن أفراده وأنواعه ((فيكون متكثراً في نفسه)) بحقيقته وماهيته يعني : أنه تقسيم حقيقي عارض لحقيقته وماهيته من حيث هي بلا شرط ؟ ((قلنا : ممنوع بل إنما يصير أحد تلك الأقسام عند التعلقات)) : و منشأ هذا الاعتراض اشتباه الكلام النفسي باللفظي ؛ فإنه لا يمكن وجود هذا بدون أفراد بخلاف النفسي فإنه عندهم ليس إلا صفة شخصية - وتنوعها إلى الأمر وغيره ليس إلا باعتبار تعلقاتها ، وليس لها جنس وأنواع باعتبار الحقيقة ، كما في اللفظي ؛ فمورد القسمة ليس نفس الحقيقة بل هو مع شرط - هو عروض الإضافات والتعلقات .

..... وذلك فيما لايزال ، واما في الأزل فلا انقسام اصلا . و ذهب بعضهم إلى أنه في الأزل خبر و مرجع الكل إليه . فإن قيل : الأمر و النهي بلا مأمور و منهي سفه و عبث ، و الإخبار في الأزل بطريق الماضي كذب محض يجب تنزيه الله تعالى عنه ؟ قلنا : إن لم نجعل كلامه في الأزل أمرا و نهيا و خبرا فلا إشكال ، و إن جعلناه فالأمر في الأزل لإيجاب تحصيل المأمور به في وقت وجود المأمور و صيرورته أهلا لتحصيله فيكفي وجود المأمور في علم الأمر

((وذلك في ما لايزال وأما في الأزل فلا انقسام أصلا)) : يعني أن انقسام الكلام إلى أنواعه إنما هو في ما لايزال ، ولا يقال لها في الأزل : أمر و لانهي و لاخير ، قوله : في ما لايزال : يقال بإزاء الأزل عرفا في محاوراتهم يراد به زمان الحوادث أو مرتبة بعد الأزل ، والمراد به ههنا أوقات التلبس بالتعلقات - ((و ذهب بعضهم إلى انه في الأزل خبر)) : يعني وتطرف آخر ، فقال : إن الكلام في الأزل ليس إلا الخبر ، و هو واحد شخصي له تعدد إضافي باختلاف الإضافة إلى خصوص المواد : فلا يلزم التعدد في الصفة ((و مرجع الكل إليه)) : يعني وتكلف في إرجاع بقية الأنواع إليه بأن الأمر مثلا يرجع إلى الإخبار عن استحقاق الثواب بالفعل ، لأن حاصل الأمر الإخبار عن استحقاق الثواب على الفعل و العقاب على الترك و النهي على العكس ، و حاصل الاستخبار : الخبر عن طلب الإعلام ، و حاصل النداء : الخبر عن طلب الإجابة . وردّ بأننا نعلم اختلاف هذه المعاني بالضرورة يعني أن تعدد المعاني و اختلافها و تبائنهما ضروري ، فدلّل الوحدة مضاد للضرورة و بطلان ذلك من أجل البديهيات ، و استلزام البعض للبعض لا يوجب الاتحاد ، يعني و مجرد استلزامه ذلك لا يوجب الاتحاد و فصله في " تهذيب الإشارات " على أن الخبر يمكن إرجاعه إلى غيره ، فجعل

الكلام في الأزل خيراً دون غيره تحكم ، فتأمل .

احتجاج المعتزلة على حدوث كلام الله بالشبهة العقلية

ولما احتج المعتزلة بحدوث كلام الله سبحانه بالشبهة العقلية والسمعية فقال : ((فإن قيل)) : أمّا الشبهة العقلية فمنها : ((الأمر والنهي بلامأمر ومنهي سفه و عبث)) : يعني أن في القرآن خطابات بالأمر والنهي لأشخاص معينين نحو قوله سبحانه لموسى عليه السلام : ﴿ فاخلع نعليك ﴾ ، وقوله لموسى وهارون : ﴿ اذهب أنت واخوك بأيتي ﴾ ، وقوله ليحيى عليه السلام : ﴿ يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ ، وكذلك الأوامر والنواهي لغيرهم وكانوا معدومين في الأزل ، فلو كان قديماً أزلياً لكان هذا أمراً ونهياً للمعدوم وأنه سفه وجنون ، وكيف يحسن في العقل أن يقول : يا موسى ! فاخلع نعليك ؛ مع أنه لم يكن هناك موسى ولا واحد ((والإخبار في الأزل بطريق الماضي كذب محض)) : يعني أن في القرآن إخباراً عن الأنبياء ومن فرعون وإبليس وقارون وهامان وغيرهم من الأعداء الأغبياء ، وكله بطريق الماضي - يجب تنزيه الله تعالى عنه - ومنها : ولأن فيه إخباراً عن أمور كانت ماضية نحو قوله سبحانه : ﴿ أنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ ، وقوله : ﴿ واوحينا إلى أم موسى وأويناها إلى ربوة ﴾ وقوله : ﴿ أنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ ، وقوله : ﴿ انّ الذين كفروا سواء عليهم ﴾ ، وغير ذلك من الآيات القرآنية ، فلو كان هذا الإخبار قديماً أزلياً لكان قد أخبر في الأزل عن شيء مضى قبله ، وهذا يقتضي أن يكون الأزل مسبوقاً بغيره وأن يكون كلام الله سبحانه كذباً وكلاماً بديهي البطلان ، علمنا أن هذا الإخبار يمتنع أن يكون قديماً أزلياً .

احتجاج المعتزلة بالشبهة السمعية

وأما الشبهة السمعية - فمن وجوه : منها : أن القرآن ذكر وكل ذكر محدث فالقرآن محدث - أما المقدمة الأولى فلقوله سبحانه : ﴿ ص وَالْقُرْآنُ ذِي الذِّكْرِ ﴾

وقوله سبحانه : ﴿ و هذا ذكر مبارك انزلناه ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ و انه لذكر لك ولقومك ﴾ ، و أما المقدمة الثانية ففي سورة الأنبياء : ﴿ و ما ياتيهم من ذكرٍ من ربهم محدث ﴾ ، و في سورة الشعراء : ﴿ و ما ياتيهم من ذكرٍ من الرحمن محدث ﴾ ، و منها : أن كلام الله سبحانه مسموع يدل عليه قوله سبحانه : ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ ، و بالبداهة و الذي سمعه ليس إلا هذه الحروف و الأصوات ، و لا شك أن هذه الحروف و الأصوات محدثة ، فلزم القطع بأن كلام الله سبحانه محدث ، و الجواب عنها : قال الإمام فخر الدين الرازي : أمّا جميع الشبهة السمعية فالجواب عنها حرف واحد و هو أن تصرف كل تلك الوجوه إلى هذه الحروف و الأصوات فكانت الدلائل اللتي ذكروها دالة على حدوث هذه الحروف و الأصوات ، و نحن لاننازع في ذلك ، و إنما ندعي قدم القرآن بمعنى آخر فكان كل هذه الشبهة ساقطة عن محل النزاع ،

الجواب عن الشبهة العقلية

و أما الجواب عن الشبهة العقلية فقال الشارح قدس سره : ((قلنا : إن لم نجعل كلامه في الأزل أمراً ونهياً وخبراً)) : بل صفته بسيطة حقيقة يتعدد إلى هذه الأنواع والأصناف باختلاف التعلقات ((فلا إشكال)) : يعني شيء من المحذورين ((و إن جعلناه)) : يعني إن جعلنا كلامه في الأزل منقسماً إليها ((فالأمر في الأزل لإيجاب تحصيل المأمور به في وقت وجود المأمور و صيرورته أهلاً لتحصيله فيكفى وجود المأمور في علم الأمر)) : يعني المأمور به ، و حاصله : بأن الأمر في الأزل لتحصيل المأمور به فيما لا يزال فلا يلزم وجود المأمور بالفعل ؛ بل يكفي تقدير وجوده ، قال الإمام : لم لا يجوز أن يقال : إن ذلك الأمر الأزل كان أمراً في الأزل للأشخاص الذين سيوجدون في لا يزال ، فثبت أن تقدم الأمر على المأمور غير ممتنع ، وهذا بناء على ما ذهب إليه الشيخ هو و أشياعه من تعلق الخطاب أزلاً بالمعدوم الذي سيوجد ، و شدد سائر الطوائف النكير عليهم في ذلك.

..... كما إذا قدر الرجل ابناً له فأمره بأن يفعل كذا
بعد الوجود و الأخبار بالنسبة إلى الأزل لا تتصف بشيء من
الأزمنة ، إذ لا ماضي و لا مستقبل و لا حال بالنسبة إلى الله تعالى
لتنزهه عن الزمان ، كما أن علمه أزلي لا يتغير بتغير الأزمان ، و لما
صرح بأولية الكلام حاول التنبيه على أن القرآن أيضاً قد يطلق
على هذا الكلام النفسي القديم

((كما إذا قدر الرجل ابناً له فأمره بأن يفعل كذا بعد الوجود)) : و هذا أو من
من بيت العنكبوت بأن هذا عزم وليس أمراً بالفعل، كيف والمعدوم لا يفهم الخطاب
ولابد في الأمر من ذلك وإلا لكان عبثاً ولغواً ، ولو سلم أن هذا أمر بالفعل من الرجل
فهو إنما يفعله لعدم وثوقه بإدراك ابنه، والحكيم الباقي جل شأنه واثق بإدراكنا فلا
وجه لتعجيله الأمر قبل وجودنا . ((وإخبار بالنسبة إلى الأزل لا تتصف بشيء من
الأزمنة)) : رد لشبهتهم أن الإخبار في الأزل بطريق الماضي كذب لا يجوز على الله
سبحانه ((إذ لا ماضي و لا مستقبل و لا حال بالنسبة إلى الله تعالى)) : فلا تحقق
لهذه الأزمنة في الأزل ((لتنزهه عن الزمان)) : و تعالى الله جل شأنه أن ينسب إليه
شيء منها ((كما أن علمه أزلي لا يتغير بتغير الأزمان)) : لأن العلم صفة حقيقية
ذاتية قائمة بذاته العلية لا يتغير بتغير الأزمنة .

التنبيه على أن القرآن أيضاً قد يطلق على الكلام النفسي كما يطلق

على النظم المتلو الحادث والرد البليغ على ابن قيم

((و لما صرح)) الإمام النسفي ((بأولية الكلام)) : النفسي القديم بذاته
الرفيعة ((حاول التنبيه على أن القرآن أيضاً قد يطلق على هذا الكلام النفسي
القديم)) : القائم بالذات المقدسة ،

..... كما يطلق على النظم المتلو الحادث ، فقال : و القرآن
 كلام الله غير مخلوق ، عقب القرآن بكلام الله تعالى لما ذكر
 المشائخ من أنه يقال : القرآن كلام الله غير مخلوق و لا يقال :
 القرآن غير مخلوق لئلا يسبق إلى الفهم أن المؤلف من الاصوات و
 الحروف قديم كما ذهبت اليه الحنابلة

((كما يطلق على النظم المتلو الحادث)) : فالشافعية والمالكية والحنفية
 لا ينكرون الكلام اللفظي ، فما قال ابن قيم في النونية : الجهمية ينكرون بإثبات
 الكلام النسفي الكلام اللفظي فصدر عن جهله و سخافة عقله ، فنحن نعلم
 بالقطع أن هؤلاء الطوائف الثلاثة وموافقيهم من فضلاء الحنابلة مسلمون ليسوا
 بكافرين، فالقول قائله ابن قيم في " النونية " : " لأن جميعهم كفار، وحمل الناس على
 ذلك كيف لا يكون كفراً . و قد قال رسولنا و نبينا صلى الله عليه و سلم : " إذا قال
 المسلم لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما " ، و الحديث يقتضي أن يبوء بها
 أحدهما ، فيكون القائل هو الذي باء بها ، و مراده بالجهمية الأشعرية و الماتريدية
 من الشافعية و المالكية و الحنفية و فضلاء الحنابلة فليعلم اصطلاحه ، و كل ما
 ينسبه إلى الجهمية - و كذلك كل ما ينسبه إلى المعطلة فمراده بها هؤلاء و المعطل
 في الأصل من ينفي الصانع ، و هذا الرجل يسمى خصومه معطلة ؛ لأنهم نفوا
 الصانع الذي يقول موبه ، و يصفه بتلك الصفات بزعمه ، و يجعلهم يعبدون إلهاً
 آخر ، و يكفرهم كالمشركين العابدين للأصنام ، فيا خيبة المسلمين أن كان يكفر
 بعضهم بعضاً ، و لم لا يقول هذا الجاهل : إن الكل يقرون بالله و وحدانيته و
 يغلط بعضهم في وصفه و لا يخرجهم ذلك الغلط عن الإسلام ، و يقول في موضع
 من " النونية " طعناً في هؤلاء : فلذلك أنكرنا الجميع مخافة التجسيم إن صرنا إلى
 القرآن و لذا خلعنا ربقة الأديان من أعناقنا ، و لنا ملوك قاوموا الرسل في آل

فرعون وقارون وهامان ونمرود وجنكسنخان ، ولنا الأئمة أرسطو وشيعته ما فيهم من قال : إن الله فوق العرش ولا : إن الله يتكلم بالوحي ، ولهذا رد فرعون على موسى إذ قال موسى : ربنا متكلم فوق السماء وأنه ناداني ، وكذا ابن سينا لم يكن منكم ولا الطوسي قتل الخليفة والقضاة والفقهاء إذ هم مجسمة ، ولنا الملاحدة الفحول أئمة التعطيل ، ولنا تصانيف مثل : " الشفاء " ورسائل إخوان الصفاء و" الاشارات " قد صرحت بالضد مما جاء في التوراة والإنجيل والفرقان ، وإذا تحاكمنا فإليهم لا إلى القرآن يا ويح جهنم وابن درهم ومن قال بقولهما !!! -

قال الحافظ التقي السبكي الكبير راداً عليه (١) : هذا الملحد تبا له وقطع الله دابر كلامه انظر هذا الملعون - كيف أقام طوائف الشافعية والمالكية والحنفية الذين هم قدوة الاسلام - ومادة الأثام في صورة الملاحدة المقرين على أنفسهم باتباع فرعون وقارون وهامان وأرسطو وابن سينا المقدمين كلامهم على القرآن، وأنهم أتباع أصحاب جنكسنخان . فما أراد هذا إلا أن يقرر عند العوام أنه لا مسلم إلا هو وطائفة اللتي ما برحت ذليلة حقيرة ، وأبرز ذلك في صورة مقاومة وخيال ليرتسم به فيهن من يقف عليه من العوام والجهال أن هذه الطوائف المذكورة على هذا الصفة - أقول : وإذا كانت علماء الشريعة وقادة الأمة بهذا الصفة كيف يقبل قولهم في الدين أو ماذا تكون قيمة فتاواهم عند المسلمين !!! ، وما أدري ما يكون وراء ذلك من قصده الخبيث ، فإن الطعن في أئمة الدين طعن في الدين وقد يكون هذا فتح باب الزندقة ونقض الشريعة ويأبى الله ذلك والمؤمنون .

القرآن كلام الله غير مخلوق

((فقال : و القرآن)) : المنزل على عين الأعيان وزين الإنسان ((كلام الله تعالى)) : قد أجمعت الأمة على أن القرآن واحد فما اعتقد بعض دجاجة (٢)

(١) في السيف الثقيل من صفحه : ٥٤ - ١٢ - و القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق

(٢) وهذا الزنديق معروف بالبرق أمهلكه الله تعالى بعدله بالبرق ١٢

المتأخرين في زماننا أن القرآن اثنان : أحدهما قرآن علي النظم المثلو، وثانيهما قرآن عملي يعني التدبر و التفكير في صحيفة الكائنات فهو زندقة مكشوفة وإلحاد و كذب فقد أبطله بعض أجلة المتأخرين (١) □ ((غير مخلوق)) : يعني أن القرآن معنى قائم بذات الله سبحانه و صفة من صفات ذاته القديمة الأزلية ، و هو غير مخلوق و ليس بحرف و لا صوت و ليس هو حالا في مخلوق ، قال إمام الأئمة إمام الدين والدنيا أبوحنيفة وأصحابه : القرآن كلام الله - جل شأنه - و صفته قديم غير محدث و لا مخلوق و لا حروف و لا أصوات ، و هو مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري صح عنه بنقل الأئمة الثقات قال الإمام أحمد بن حنبل: إن الله سبحانه لم يزل متكلمًا إن شاء بمعنى أن الكلام صفة قديمة وأنه سبحانه يكلم أنبياءه متى شاء بدون حرف و لا صوت بالوحي و من وراء حجاب أو بإرسال رسول و متكلم خالق قبل أن يكلم الرسل و يخلق الخلق ، صرح بذلك غلام خلال من قدماء الحنابلة في " المقنع " ، و قد صح عن أحمد فيما جاوب به المتوكل و غيره أنه كان يقول : القرآن من علم الله سبحانه، و علم الله غير مخلوق فالقرآن غير مخلوق ، و هذا دليل على أنه كان يريد بالقرآن ما هو قائم بالله سبحانه و تابعه ابن حزم بالجزم في " الفصل " صرح بذلك في " عيون التواريخ " و في " كتاب السنة " ، و غيرهما و قد أفنى الحشوية مؤلفات الإمام في فتن بغداد و تصرفوا فيها ما بالأيدي من كتبه و دسّسوا ما شاؤا و قاتلهم الله بعدله ((عقب القرآن بكلام الله)) : يعني قال المصنف الإمام : القرآن كلام الله غير مخلوق ، و لم يقل : غير مخلوق مع أن هذا أخصر - ((لما ذكر المشائخ)) : يعني المتقدمون من الأشاعرة و الماتريدية ((من أن يقال : القرآن كلام الله غير مخلوق و لا يقال : القرآن غير مخلوق لئلا يسبق إلى الفهم أن المؤلف من الأصوات و الحروف قديم)) : لأن عند العامة إطلاق القرآن على هذا أغلب من إطلاق القرآن على ذلك ، فافهم - ((كما ذمبت إليه الحنابلة)): يعني الحشوية و قائدهم أبوالعباس أحمد بن

تيمية وصاحبه ابن قيم ،

قول ابن قيم أن الله تكلم بالقرآن العربي الذي سمعه الصحابة والرد عليه

قال ابن قيم في موضع من كتابه أعني " النونية " : أن الله تكلم بالقرآن العربي الذي سمعه الصحابة ، هذا عبارته ، و مراده بذلك أن كلام الله حرف وصوت ، و هذا العالم الفاضل لا يفرق بين كلام الله و اللفظ الدال عليه ، ثم قال في موضع : و من قال ليس لله في الأرض كلام فقد جحد رسالة محمد ﷺ - أقول : إن أراد هذا المصنف العجيب الأعشى وجود الكلام اللفظي ، فنفي وجوده في الأرض نفي لوجود كتاب الله و شرعه ، و هو كفر صراح ، و لا قائل بذلك من فرق المسلمين ، و أن أراد به وجود الكلام النفسي القائم بالله في الأرض فقول بالحلول كقول النصارى في الكلمة ، و قد كفر غير واحد من أئمة السنة السائمة على قولهم بأن الله تعالى يقرأ على لسان كل قارئ تعالى الله عما يافكون ، ثم قال في موضع : إنه يلزم من نفي صفة الكلام بمعنى الحرف والصوت نفي الرسالة ، أقول : هو جهل من هذا المصنف و قد نص الله سبحانه على أن تكليم الله سبحانه منحصر في الوحي إلى القلب و إرسال ملك يبلغ كلامه ، و الكلام من وراء حجاب ، و ليس في واحد منها صوت للمتكلم سبحانه ، فمن أين يلزم من نفي ما أثبتته الحشوية المجسمة من حرف و صوت نفي الرسالة ، بل عد إليه سبحانه محلاً للأعراض هو المستلزم لنفي الصانع فضلاً عن الرسالة ، قاتل الله هذه الفئة السخيفة ما أجهل بما يجوز في الله و ما لا يجوز ، و قال في موضع من " النونية " : إن القول بعدم استقرار الإله جل شأنه على العرش استقرار تمكن ، و بعدم كون كلام الله القائم بذاته حرفاً و صوتاً حادثين في ذاته تعالى يكون انحلالاً عن الدين وانسلاخاً من التكليف ، انظر هذا الخبث يصور الناظم ، و لست أشك أن من يجترى على هذا التصوير و يدور في خلدته مثل هذا التفكير إمام جماهير أهل الحق المعتقدين للتنزيه من فجر الإسلام إلى اليوم في مشارق الأرض و مغاربها على طول القرون ، لا يكون إلا منطوياً على الانسلاخ الذي يرى به

أهل الحق قاتله الله ما أجرأه على الله و ما أوقحه، فمن ذا الذي نفى أن للعالم مدبراً و أن القرآن كلام الله أنزل به الروح الأمين على قلب رسوله صلى الله عليه وسلم و من ذا الذي يجهل أن الملاء و التخلية من شأن الأجسام نفياً و إثباتاً ، و لم يرد الملاء في سنة صحيحة حتى يجوز إطلاقه عليه سبحانه و في كل ما تقدم عبر ، و يا لها من عبر ! و هل يعد من علماء الإسلام ؟ بل من عامة المسلمين من يروج الباطل و هو يعلم أنه باطل ؟ و ليرجع العالم العاقل إلى تبين كذب المفتريين لابن عساكر ليعلم مبلغ سعى الحشوية في إثارة الفتن في كل قرن ، و ذلك مما يعرق به جبين الدمر خجلاً من تخريفاتهم التي يتبرأ منها العقلاء كلهم - (فائدة) و أما الحشوية و هي طائفة رذيلة جهال ينتسبون إلى أحمد و أحمد مبراً منهم و سبب نسبتهم إليه أنه قام في دفع المعتزلة ، و ثبت في المحنة المشهورة - رضي الله عنه - و نقلت عنه كلمات ما فهمها هؤلاء الجهال فاعتقدوا هذا الاعتقاد الفاسد، و صار المتأخر منهم يتبع المتقدم إلا من عصمه الله سبحانه و قد أجاد الرد عليهم ابن الجوزي في " منهاج الأصول " و " دفع الشبهة التشبيهية " ، و من جملة ما يقوله ابن الجوزي :

فقد فضحوا ذاك الإمام بجهلهم و قد أحسن الرد عليهم أيضاً التقى الحصني في " دفع الشبهة التشبيهية " - ((جهلاً)) : و بالغوا حتى قال بعضهم جهلاً الجلد و الغلاف قديمان فضلاً عن المصحف ، و هذا قول باطل بالضرورة ، ((أو عناداً)) : للحق أولعلماء الأمة .

المخالف في صفة الكلام فرق

والمخالف في صفة الكلام فرق : منهم : المعتزلة المبتدعة بدعاً شنيعاً ، زعموا أن كلامه مخلوق و حادث، ثم افترقوا فرقتين ، فقال بعضهم : كلامه من جنس الحروف والأصوات ، و قال بعضهم : هو من جنس الحروف والأشكال لا من جنس الأصوات ،

و إنما تظهر ثمرة اختلافهم أن عند الطائفة الأولى إنما يصير هو سبحانه متكلمًا بخلق الحروف و الأصوات في محل القراءة ، أما بدون ذلك فلا يصير متكلمًا . و عند الطائفة الثانية يصير متكلمًا بإحداث الحروف في اللوح المحفوظ أو جبرئيل أو الرسل - و منهم الكرامية فإنهم وافقوا المعتزلة في أن كلامه سبحانه حروف و أصوات ، و في أن كلامه مخلوق و حادث ، لكنهم قالوا: إنه قائم بذاته العلية لتجوزهم قيام الحوادث به جل شأنه. و منهم مبتدعة الحنابلة الحشوية قالوا : كلامه سبحانه حروف و أصوات ، و هو قديم قائم بذاته ، و قال قائدهم أبو العباس أحمد بن تيمية في جزء أجاب فيه عن فتيا رفعت إليه بعبارة مطنبة كما هو دأبه : فأما السلف فلم ينقل عن أحد منهم أن حروف القرآن أو ألفاظه أو تلاوته مخلوق ، بل قد ثبت عن غير واحد الرد على من بان ألفاظ القرآن مخلوقة ، و قالوا : هو جهي و منهم كفر التأول لذلك ، انتهى كلامه بلفظه - أقول راداً عليه : هذا مقداره من الجهل ، و ليعلم مما ذكر أن السلف ردوا على من قال : ألفاظ القرآن مخلوقة أو تلاوته مخلوقة ، أو قال : حروف القرآن مخلوقة ((و حيث ردوا هذا فهم قائلون بانها غير مخلوقة)) ، فو الله لولا خذلان الله سبحانه الذي هو غالب على هذا الرجل ما نطق لسانه بهذه العظيمة - ثم قال : و التلاوة في نفسها التي هي حروف القرآن و ألفاظه غير مخلوقة ثم قال : و أرادوا يعني بعض الموافقين و المخالفين أن يستدلوا على حدوث حروف القرآن بما دل على حدوث أفعال العباد و ما تولد عنها و هو من أقبح الغلط يعني و ليست من أفعال العباد و إنما هي الكلام القديم ، أقول : هذا كله كذب فاحش صدر من سوء فهمه و غباوته لو كان يعقل ما يقول ذلك ، او لم يعلم من غفلته أن إثبات الحرف و الصوت لله سبحانه تشبيه له بالإنسان و تشبيهه الله عز و جل بمخلوق كفر صراح ، و الصوت عرض سيال محال أن يقوم

بالله سبحانه ، بل هو متكلم بكلام نفسي ليس له صوت - قال الحافظ عز الدين بن عبد السلام : القرآن كلام الله ، صفة من صفاته قديم بقدمه ليس بحروف ولا أصوات ، ومن زعم أن الوصف القديم هو عين أصوات القارئ وكتابة الكاتبين ، فقد ألحد في الدين وخالف إجماع المسلمين ، بل إجماع العقلاء من غير أهل الدين ، ولا يحل للعلماء كتمان الحق ولا ترك البدع سارية في المسلمين - ويجب على ولادة الأمر إعانة علماء المنزهين الموحدين و قمع المبتدعة المشبهين المجسمين ، ولا يحل لولادة الأمر تمكين أمثال هؤلاء من إفساد عقائد المسلمين - وقال جمال العرب ابن الحاجب المالكي من زعم أن أصوات القاري و حروفه المنقطعة و الأشكال التي يصورها الكاتب في المصحف هي نفس كلام الله سبحانه القديم ، فقد ارتكب بدعة عظيمة و خالف الضرورة ، ويجب على من له الأمر وفقه الله أخذ من يعتقد ذلك و زجره و تأديبه و حبسه عن مخالطة من يخاف منه إضلاله إلى أن يظهر توبته عن اعتقاد مثل هذه الخرافات التي يأبأها العقول السليمة - و قال الشيخ جمال الدين بن رشيقي المالكي : من قال : إن الله سبحانه متكلم بحرف و صوت فقد قال قولاً يلزم منه أن الله جسم ، و من قال : إنه جسم فقد قال بحدوثه و من قال بحدوثه فقد كفر والكافر لا يصح ولايته و لا تقبل شهادته. و قال الشيخ محي الدين محمد بن أبي بكر الفارسي : من قال: إن الله سبحانه متكلم بالصوت والحرف فقد أثبت الجسمية ، و صار بقوله مجسماً والمجسم كافر، بل كفرهم أشنع و ابشع من مقالة النصاري واليهود ، أما اليهود فشبهوه بالحادث صفة، و أما النصاري فقالوا : إنه جوهر شريف ، والمجسمة يثبتون الجسم لله سبحانه ، و قال الحافظ السخاوي : كلام الله سبحانه قديم صفة من صفاته ليس بمخلوق ، و أصوات القراء و حروف المصاحف أمر خارج عن ذلك ، و لهذا يقال : صوت قبيح و قراءة غير حسنة و خط

قبيح غير جيد ، ولو كان ذلك كلام الله جل شأنه لم يجز ذمه على ما ذكر ، لأن أصوات القراء به تختلف باختلاف مخارجها والله سبحانه منزه عن ذلك ، وأما قول القاضي صاحب عارضة الأحوزي فقد سبق أنفاً ، يقول : لا يحل لمسلم أن يعتقد أن كلام الله حرف و صوت لا من طريق العقل و لا من طريق الشرع ، فأما طريق العقل فلأن الحرف والصوت مخلوقان محصوران و كلام الله يجز عن ذلك كله ، و أما طريق الشرع فلأنه لم يرد في كلام الله حرف و صوت من طريق صحيحة . أقول : و أنت تعلم مبلغ استبحار ابن العربي في الحديث ، و في "القواصم والعواصم" ما يفصم ظهر ابن تيمية و ابن قيم و سائر الحشوية الجهلة ، قال العلامة قاسم بن قطلوبغا الحافظ الحنفي راداً على ابن تيمية : أقول : فالحاصل يعني حاصل كلام ابن تيمية أن القراءة نطق القارئ ، و كلام الله سبحانه و المسموع صوت القارئ ، و كلام الله سبحانه و ما في المصحف نقش الكاتب ، و كلام الله سبحانه و هذا كله هذيان ليس فيه ما يصح شبهة فضلاً عن الحجة - و يقال له : هل تكلم الله سبحانه بهذه الحروف دفعة أو على التعاقب ، فإن كان الأول تحصل منه أنه غير هذه الكلمات التي نسمعها ، لأن التي نسمعها حروف متعاقبة ، فحينئذ لا يكون هذا القرآن المسموع قديماً ، و إن كان الثاني فالأول لما انقضى كان محدثاً لأن ما ثبت قدمه امتنع عده ، و أيضاً لما حصل بعد عدم كان حادثاً فظهر بطلان ما ادعاه ، و أنه من أقبح الغلط ، و قال ابن تيمية : ليس في الحجج العقلية والنقلية ما يدل على حدوث نفس القرآن إلا من جنس ما يحتج به على حدوث معانيه ، والجواب عن الحجج مثل الجواب عن هذه سواء بسواء ، قال الحافظ: قلت : ممنوع ، بل الجواب ناطق بأن الألفاظ مخلوقة ، والمعنى قديم و في أوائل تفسير "روح المعاني" بسط لطيف في الكلام النفسي بحيث لا يدع شكاً لمرتاب ، و بعد أن انتهى الشيخ الألوسي مفتي

الثقلين فيه من الكلام في الكلام النفسي قال : و من أحاط بذلك اندفع عنه كل أشكال في هذا الباب ، و رأى أن تشنيع ابن تيمية و ابن قيم و ابن قدامة "الموفق" و ابن قاضي الجبل والطوفي "سليمان بن عبدالقوي" و أبي نصرالسنجري و أمثالهم صرير باب أو طنين ذباب ، و قد انحرفت أفكارهم و اختلطت أنظارهم فوقعوا في علماء الأمة و أكابر الأئمة ، و بالغوا في التعنيف و التشنيع و تجاوزوا في التسخيف و التفتيع ، و لولا الخروج عن الصدد لو فيتهم الكيل صاعا بصاع ، و لتقدمت إليهم بما قدموا باعا بباع ، و لعلمتهم كيف يكون الهجاء بحروف الهجاء إلى آخر ما قال. أقول : إنما سقتُ كلام هذا الرجل لاعتراف أهل مذهبه أنه أعلمهم و ليعلم ممّا ذكر صحة ما نقل مشائخنا عنهم من أن كلام الله سبحانه عندهم هو الحروف المؤلفة والأصوات المقطعة ، و أنه حال في الألسنة والصدور والمصاحف ، و أنه مع هذا غير مخلوق ، و هذا هذيان ظاهر فوق كل هذيان ، و ليعلم أن ضرر العلم إذا زاع صاحبه دونه كل ضرر ، فإن الطاغى بالمال يزول ضرره بزوال ماله مثل صاحب الجاه الذي لا يدوم جامه - وأما صاحب العلم الذي لعب به الشيطان ، و خلد كتباً فيما طغى به فهمه ، و طاش قلمه ، فيدوم ضرره و يتضاعف وزره مادامت آثاره دارجة يضل بها أناس - فتأمل في هذا المقام ، فقد غفل عنه أقوام بعد أقوام .

..... و أقام غير مخلوق مقام غير حادث تنبيهها على اتحادهما و قصدا إلى جري الكلام على وفق الحديث ، حيث قال عليه السلام : القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق ، و من قال : إنه مخلوق فهو كافر بالله العظيم و تنصيها على محل الخلاف بالعبارة المشهورة فيما بين الفريقين ، و هو أن القرآن مخلوق أو غير مخلوق : ولهذا تترجم هذه المسئلة : يعني تسمي هذه المسئلة بمسئلة خلق القرآن ، تحقيق الخلاف بيننا و بينهم يرجع إلى إثبات الكلام النفسي و نفيه و إلا فنحن لا نقول بقدم الألفاظ و الحروف

أقام المصنف غير المخلوق مقام غير الحادث لثلاثة وجوه

((و أقام غير المخلوق مقام غير الحادث)): يعني قال المصنف : القرآن كلام الله غير مخلوق ، و لم يقل : القرآن كلام الله غير حادث مع أنه أشهر و أظهر ((تنبيهاً على اتحادهما)) : يعني في المصداق ، لأن عدم خلقه مع وجوده مستلزم لقدمه ((و قصداً إلى جري الكلام على وفق الحديث حيث قال عليه السلام : القرآن كلام الله غير مخلوق)) روى البيهقي عن ابن عباس في قوله سبحانه : قرآناً عربياً غير ذي عوج ، قال : غير مخلوق ، و عن يزيد الكلاعي قال : قالوا لعليّ : حكمت كافر أو منافقاً فقال ما حكمتُ مخلوقاً ، ما حكمتُ إلا القرآن ، و روى البغوي في "شرح السنة" عن عمر بن دينار سمعت مشيختنا من سبعين سنة يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق ، قلت : مشيخته ابن عباس وابن عمرو و جابر بن عبد الله و عبد الله بن عمرو و جماعة من التابعين ، و الحديث أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية ، و البخاري في خلق الأفعال ، و الخطيب عن جابر و عن أنس و عن ابن مسعود و ابن عدي في "كامله" عن أبي

مريرة، كلهم مرفوعاً صراحةً أو حكماً بألفاظ مختلفة ، وروى أبو نعيم عن أبي مريرة قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نتحدث ، إذ قام مستوفزاً فقال : يا بلال ! ناد في الناس فناذى في الناس فاجتمع إليه المهاجرون والأنصار ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : "أيها الناس كل شيء دون الله مخلوق إلا القرآن فإنه كلامه وتنزيله " فقالوا : يا رسول الله ! خفت علينا ، فقال : " لا ! ولكن قوما يأتون بعدكم ويزعمون أن القرآن مخلوق يكذبون على الله ومن كذب على الله فهو في النار . " قال الحافظ السخاوي : الحديث بجميع طرقه ضعيف ، قلت : الحديث مروى من طرق كثيرة فالضعف متجبر بكثرة الطرق يشد بعضها بعضاً ، قال الحافظ العسقلاني : والظاهر أن مجموع الأحاديث تحدث منها قوة تدل على أن له أصلاً ، ((وتنصباً علي محل الخلاف بالعبارة المشهورة فيما بين الفريقين)) : بين الاشاعرة والمعتزلة ، ((وهو أن القرآن مخلوق أو غير مخلوق)) : يعني الجماعة لما ثبت عندهم الكلام النفسي قالوا : إنه قديم غير مخلوق : والمعتزلة لما لم يثبت عندهم الكلام النفسي أطلقوا القول بخلق القرآن ، وأراد بخلق القرآن كونه منفصلاً عن الله لا قائماً به ولا صفة له ، وفي "الفرق بين الفرق" للأستاذ أبي منصور البغدادي ، وقد روى هشام بن عبيد الله الرازي عن محمد بن الحسن : من صلى خلف المعتزلي يعيد صلواته ، وروي هشام أيضاً عن يحيى بن أكثم عن أبي يوسف أنه سئل عن المعتزلة ، فقال : هم الزنادقة ، وقد أشار الشافعي في كتاب القياس إلى رجوعه عن قبول شهادة المعتزلة وأهل الأمواء ، وبه قال مالك و فقهاء المدينة ، فكيف يصح من أئمة الإسلام إكرام القدرية بالنزول لهم مع قولهم بكفرهم وفي "إكفار الملحدون" لشيخ مشائخنا الشيخ الأنور ، وفي "السير الكبير" من لفظ محمد : و من أنكر شيئاً من شعائر الإسلام فقد أبطل قول لا إله إلا الله ، انتهى كلامه . قال : سمعت سفيان الثوري يقول : قال لي حماد بن أبي سليمان أبلغ أبا فلان المشرك فإنني بريء من دينه ، وكان يقول : القرآن مخلوق ، وقال الثوري : من قال : القرآن مخلوق ، فهو كافر ، وقال علي بن عبد الله ابن المديني القرآن كلام ، من قال : إنه مخلوق فهو كافر

لا يصلى خلفه ، و في " المسامرة " أن أباحنيفة قال لجهم : أخرج عني يا كافرا ! و في " الرسالة التسعينية " للحافظ ابن تيمية بإسناد عن محمد قال : قال أبوحنيفة : لعن الله عمرو بن عبيد ثم حمل في " المسامرة " قوله لجهم على التأويل - قال شيخنا : وهذا غير ظاهر ، كيف ! وقد ورد الوعيد الشديد في إكفار المسلم ، فحاشا جناب الإمام ٢ عن ذلك لو لم يكن عنده كافرا ، أقول : و به كفاية لذي الأذهان والبسط اللطيف في إكفار الملحدين ، فافهم .

((ولهذا تترجم هذه المسئلة : يعني تسمي هذه المسئلة بمسئلة خلق القرآن)) والعجب أن وصف القرآن بأنه مخلوق أو غير مخلوق مسئلة غير مأمونة العاقبة علي الخائضين فيها ، و قد صارت فتنة لقوم و سببا لوقوع التشاجر والتنافر والتكفير والتبديع لأقوام صالحين .

تحقيق الخلاف بين أهل السنة والجماعة وبين المعتزلة القدرية

يرجع إلى إثبات الكلام النفسي ونفيه

((وتحقيق الخلاف)) : يعني في أن القرآن مخلوق أو غير مخلوق ((بيننا)) : أهل السنة والجماعة - ((و بينهم)) : يعني المعتزلة القدرية ((يرجع إلي إثبات الكلام النفسي)) : عند أهل السنة والجماعة ((و نفيه)) : عند المعتزلة القدرية - وإلا فنحن لا نقول بقدوم الألفاظ والحروف ؛ لأن اللفظ لا بد له من أن يكون باعتبار وجوده الخارجي متعاقب الحروف ، فلا يتصور العاقل في مثله قدما فأن يتصور القدم لعرض محسوس ، فجلا الإله أن يقوم به عرض سيال ، فدليل اتصاف الله سبحانه بصفاته العلية من الكتاب والسنة ، والمعقول معروف عند أهله ، وأما ما ذهب إليه ابن تيمية من أن كلام الله سبحانه حرفا و صوتا صادر من الله حادث شخصا قديم نوعاً ، لم يقل به أحد قبل ابن تيمية و تابعه على ذلك صاحبه ابن قيم في " النونية " ، وإنما سلك هذا الطريق الغير النافذ ليخيل إلي العامة أن صفات الله جل شأنه من قبيل صفات العبد ، فلا مانع من أن يكون الباري سبحانه ينظر

بعين و يسمع بأذن إلى آخر تلك المخازي ، والصواب فليس للحشوية الجهلة عقيدة جامعة فيكون عزو عقيدة إلى جماعة الحديث مخادعة وتمويهاً علي العقول ، وذكر ابن قيم في " النونية " عقائده و عقائد غيره و يزعم بزعمه أن عقائده عقائد أهل الحديث ، فكيف ! وهي تقرير للعقائد الباطلة وهي حمل العوام على تكفير كل من سواه و سوى طائفته الحشوية ، فلا يجوز لمسلم أن يعتمد عليه لا في أصول ديننا و لا في فروعها والله ينتقم منه و من شيخه بعدله .

..... وهم لا يقولون بحدوث الكلام النفسي ، و دليلنا ما مر أنه ثبت بالإجماع و تواتر النقل عن الأنبياء أنه متكلم ، و لا معنى له سوى أنه متصف بالكلام ، و يمتنع قيام اللفظي الحادث بذاته تعالى فتعين النفسي القديم . و أمّا استدلالهم بأن القرآن متصف بما هو صفات المخلوق و سمات الحدوث من التأليف و التنظيم و الإنزال و التنزيل و كونه عربيا مسموعا فصيحاً معجزاً إلى غير ذلك فإنما يقوم حجة على الحنابلة

المعتزلة القدريّة لا يقولون بحدوث الكلام النفسي

((و هم لا يقولون بحدوث الكلام النفسي الخ)) : يعني لو ثبت عندهم الكلام النفسي فهم لا يقولون بأنه حادث ثم أرجو منك أن تقرّ قول الموفق ، قال الموفق ابن قدامة : قال: أهل الحق : القرآن كلام الله غير مخلوق ، و قالت المعتزلة : هو مخلوق و لم يكن اختلافهم إلا في هذا الموجود دون ما في نفس الباري مما لا ندري ما هو و لا نعرفه ، و قال في موضع آخر: الصراط المستقيم في إثبات الحرف القديم ، انظر العاقل إلى هذا الشغب الفاسد والهديان الكاسد - و عن الموفق يقول شيخ ابن قيم : ما حل دمشق مثله بعد الأوزاعي ، و أنت ترى كلامه في المسئلة ، و إذا كان هذا حال موفق الدين ابن قدامة فماذا تكون حال ابن قيم و شيخه الفوقاني ، والعجب ! و ابن بطة صاحب " الإبانة " فضح نفسه بأن يزيد في رواية حديث موسي عليه السلام "من ذا العبراني الذي يكلمني من الشجرة " ليجعل كلام الله من قبيل كلام الخلق ، فجمع بين اختلاق و سوء المعتقد ، و ابن بطة هذا من أئمة ابن قيم ، و لست في صدد استقصاء أهل الكذب والزيغ من أئمة ، و للسفاري المتأخر زمننا و علماً كلمات جوفاء في تزويق مزاعم الحشوية في تلك المسائل ، و من ظن به أني أتى

بشيء جديد غير الجمع بين الحشوية التصوف الساييم الهاذي بالتجلي في الصور فقد ولي فهمه وأدبر علمه ، وكم من مصاب في عقله ودينه يتكلم في هذه الأبحاث بدون علم ولا فهم - نسأل الله المعافاة - والتحقيق : إنما التعويل على أهل الحديث في روايتهم الحديث فقط في ما لا يهتمون به . وأما علم أصول الدين فله أئمة معروفون وبراهين مدونة في كتبهم ، وأهل الحديث المبرؤن من البدع يسرون سيرهم فكم بين أهل الحديث من هو أنزل منزلة من العامي في علم أصول الدين والفقه وكذلك سائر العلماء في غير علومهم .

استدلال المعتزلة على خلق القرآن وحدوثه

((وأما استدلالهم)) : و من الشبه النقلي للمعتزلة بأن اللفظ المنزل علي محمد صلى الله عليه وسلم فهو حادث . ((بأن القرآن متصف بما هو صفات المخلوق وسمات الحدوث من التأليف والتنظيم)) : يعني أنه سبحانه وصف القرآن بقوله : ﴿ كُتِبَ احْكُمْتُ آيَتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ ﴾ فهذا يدل على أن القرآن مؤلف من السور والآيات والحروف والعبارات ، وذلك يدل على أنه محدث مخلوق ((والإنزال والتزيل)) : يعني أن القرآن موصوف بكونه تنزيلاً ومنزلاً ، وهذا في غير موضع واحد من القرآن ، وذلك يقتضي كونه محدثاً مخلوقاً ((وكونه عربياً)) : قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ، فهذا يدل على أن القرآن مؤلف من الحروف والعبارات ، وكل ذلك يدل على أنه محدث مخلوق ((مسموعاً)) : قال الله سبحانه : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ والذي يسمعه ليس إلا هذه الحروف والأصوات ، ولا شك أن هذه الحروف والأصوات محدثة مخلوقة - فهذا جملة الكلام في الشبه النقلي ، وقد سبق أن الجواب عنها حرف واحد ، وهو : أن تصرف تلك الوجوه إلي هذه الحروف والأصوات فإننا معترفون بأنها محدثة ((فصيحاً)) : يعني وكونه فصيحاً يجب أن يكون كثيراً الاستعمال والاستعمال حادث ،

فكذا موصوفه لأن محل الحادث حادث .

((معجز)) : أجمعت الأمة على أن القرآن معجزة - قال الحافظ السخاوي :
و الصفة القديمة القائمة بذاته سبحانه ليست المعجزة ، لأن المعجزة ما تحدي
به الرسول و طالب بالإتيان بمثله ، وأنه لم يتحد هم بصفة الباري القديمة ، و
لا طالبهم بالإتيان بمثلها ، و من اعتقد ذلك و صرح به أو دعا إليه فهو ضال
مبتدع ، بل خارج عما عليه العقلاء إلى تخليط المجانين ، و إذا ثبت أن القرآن
معجزة و ثبت أن المعجز محدث ، ثبت أن القرآن محدث ((إلى غير ذلك)) : من
كونه ذكراً محدثاً مجعولاً و كائناً في اللوح المحفوظ ، و مختلفاً باختلاف المحال ،
و نحو ذلك من لوازم الحدوث .

الجواب عن استدلال المعتزلة والرد على الحنابلة

((فإنما يقوم حجة)) : خبر لقوله : فأما استدلالهم ((على الحنابلة)) : يعني
على الحشوية القائلين أن كلامه حروف و أصوات ، و مع ذلك فهو قديم ، و هو جهل
أو عناد إذالضرورة قاضية بأن الحروف والأصوات حادثه ، مشروط حدوث بعضها
بانقضاء البعض يمتنع التكلم بحرف منها دون انقضاء ما قبله ، و قد سبق أنفاً أن
الحروف ليست قديمة أزلية لأنها متعاقبة ، و ما كان مسبوقاً بغيره لم يكن قديماً
أزلياً ، و قال البيهقي في " كتاب الأسماء و الصفات " : مذمب السلف و الخلف من
أهل الحديث : و السنة أن القرآن كلام الله ، و هو صفة من صفات ذاته ، و قال
البيهقي في " كتاب الاعتقاد " : القرآن كلام الله و كلام الله صفة من صفات ذاته و
ليس شيء من صفات ذاته مخلوقاً و لا محدثاً و لا حادثاً ، قال الله تعالى : ﴿ انما
قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون ﴾ ، فلو كان مخلوقاً لكان مخلوقاً بكن ،
و يستحيل أن يكون قول الله لشيء بقول : لأنه يوجب قولاً ثانياً و ثالثاً فيتسلسل و

هو فاسد ، و قد ذكر الله سبحانه الإنسان ثمانية و عشرين موضعاً من كتابه، و قال : إنه مخلوق و ذكر القرآن في أربعة و خمسين موضعاً و لم يقل : إنه مخلوق ، و لما جمع بينهما في الذكر فقال : ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان ﴾ ، فخص القرآن بالتعليم ؛ لأنه كلامه و صفته ، و خص الإنسان بالتخليق ؛ لأنه خلقه و مصنوعه ، و لولا ذلك لقال : خلق القرآن و الإنسان، و إنما يقوم حجة على أبي نصر الوايلي السنجري رأس المجسمة ، قال في " مختصر البيان " : إن القرآن حروف و أصوات .

الرد على أبي نصر الوايلي السنجري رأس الجسمية

قال إمام الحرمين راداً عليه : أبد هذا الأحمق كلاماً ينقض آخره أوله في الصفات ، و ما ينبغي لمثله أن يتكلم في صفات الله على جهله و سخافة عقله، و قال الإمام أيضاً : قد ذكر هذا اللعين المهين فصولاً و زعم أن الأشعرية يكفرون بها ، فعليه لعائن الله ترى واحدة بعد أخرى ، و تكلم السنجري في النزول و الانتقال و الزوال و الاتصال و الانفصال و الذهاب و المجيء ، فقال الإمام : و من قال بذلك حل دمه ، و عن هذا السنجري يقول أبو جعفر اللبلي الأندلسي : و كذلك اللعين المعروف بالسنجري (١) فإنه تصدى أيضاً للوقوع في أعيان الأئمة و سرج الأئمة بتأليف تألف ، و هو على قلة مقداره و كثرة عواره ينسب أئمة الحقائق و أحبار الأئمة و بحور العلوم إلي التلبيس و المراوغة و التدليس ، و هذا الرذيل الخسيس أحقر من أن يكثر به ذماً ، و لا يضر البحر الخضم و لغة الكلب ، فمما ذكر هذا المنافق الحائد بجهله عن الحقائق إن من مذهب الأشعري أن النبوة عرض من الأعراض ، و العرض لا يبقى زمانين ، و إذا مات النبي زالت نبوته و انقطعت دعوته ، و هذه من جملة

(١) مؤلف " الإنانة " و " مختصر البيان " المتوفى ٤٤٤هـ .

حكاياته و مقولاته المستبعدة البادرة ، و سيأتي الرد على هذا الهذيان . و قد وفاه اللبلي الكيل صاعاً بصاعٍ ، قال أفضل المحققين محمد زاهد الكوثري : و من الغريب أن السنجريين مهما علت منزلتهم في الرواية يقل بينهم جدا من يكون طاهر الذيل ناصع الجبين من فحش التشبيه و وصمة التجسيم ؛ كما لا يخفى على من بحث مؤلفاتهم بتبصر ، و أرى ذلك من عدوى مرض شيخ المجسمة أبي عبد الله محمد بن الكرام السنجري الذي بتقشفه كان سحر الباب أهل سجستان ، و تاريخه في غاية من الشهرة و بالله التوفيق .

..... لا علينا ، لأننا قائلون بحدوث النظم ، و إنما الكلام في المعنى القديم ، و المعتزلة لما لم يمكنهم انكار كونه تعالى متكلماً ذهبوا إلى أنه تعالى متكلم بمعنى إيجاد الأصوات و الحروف في محالها أو إيجاد أشكال الكتابة في اللوح المحفوظ و ان لم يقرأ على اختلاف بينهم ، و انت خبير بأن المتحرك من قامت به الحركة لا من أوجدها و إلا يصح اتصاف الباري بأعراض المخلوقة له تعالى الله ن ذلك علواً كبيراً - و من أقوى شبه المعتزلة : أنكم متفقون على أن القرآن اسم لما نقل إلينا بين دفتي المصاحف تواتراً ، و هذا يستلزم كونه مكتوباً في المصاحف مقروءاً بالألسن مسموعاً بالأذان و كل ذلك من سمات الحدوث بالضرورة

((لا علينا لأننا قائلون بحدوث النظم)): المؤلف من الحروف والأصوات ،
 ((و انما الكلام)) يعني البحث مع المعتزلة ((في المعنى القديم)) : القائم بذاته سبحانه -

والمعتزلة ذهبوا إلى أنه تعالى متكلم بمعنى إيجاد الأصوات والحروف

في محالها أو إيجاد أشكال الكتابة في اللوح المحفوظ

((و المعتزلة لما لم يمكنهم إنكار كونه متكلماً ذهبوا إلى أنه تعالى متكلم بمعنى إيجاد الأصوات و الحروف في محالها ، أو إيجاد أشكال ، الكتابة في اللوح المحفوظ)) يعني عندهم أنه سبحانه موجد تلك الحروف و الأصوات في جسم ، و حاصله : أن المعتزلة يقولون : إن الكلام لا يكون إلا حروفاً و أصواتاً ، و حينئذ فلا يتصف به سبحانه بحيث يكون قائماً به لئلا يلزم قيام الحوادث به و معنى

كونه متكلمًا : أنه خالق للكلام في غيره .

رد أهل السنة على المعتزلة

ورد عليهم أهل السنة بأن كلامنا النفسي ليس بحرف ولا صوت ، وهو كلام حقيقة فليكن كلام الله سبحانه كذلك ، أي ليس بحرف ولا صوت وهو كلام حقيقة ، فليس مراد أهل السنة بقولهم : فليكن كلام الله سبحانه كذلك ، أنهما متماثلان حقيقة بل هما متباينان ؛ لأن كلامه سبحانه قديم و كلامنا النفسي حادث مشتمل على التقدم والتأخر ، بل مرادهم التشبيه في أن كلا منهما ليس بحرف ولا صوت و إن تباينا في الحقيقة ((وإن لم يقرء)): يعني تلك النقوش ((على اختلاف بينهم)): قال بعضهم : كلامه من الجنس الحروف والأصوات ، وقال بعضهم : هو من جنس الحروف والأشكال لا من جنس الأصوات ، وقد سبق الإختلاف أنفا تفصيلاً فافهم : ((وانت خبير)): رد على المعتزلة بأننا نمنع أنه جل شأنه متكلم بمعنى إيجاد الحروف والأصوات في محالها و بمعنى إيجاد نقوش الكتاب في مواضعها ((بأن المتحرك من قامت به الحركة لا من أوجدها)) : يعني بأن معنى المشتق ما قام به مبدئه لا ما قام به إيجاد مبدئه ((وإلّا لصح اتصاف الباري بالأعراض المخلوقة)) : كالسواد مثلاً فيقال إنه اسود بناءً على أنه أوجده في الجسم فما ذمبوا إليه مخالفةً للعرف وللغة ومخالفةً للضرورة الظاهرة التي هي اشنع من مخالفة للدليل ، و جمهور العقلاء قالوا : تصور هذا المذمب كاف في الجذم ببطلانه ، و البراهين العقلية والأدلة القطعية شاهدة ببطلانه ، فإن ربوبيته سبحانه إنما تحقق بكونه موصوفاً بالصفات العلية ، فإذا انتفت صفاته انتفت ربوبية ، فإذا انتفت عنه صفة الكلام انتفى الأمر والنهي ولوازمهما ، وذلك ينفي حقيقة إلهية ، وقال الإمام الفخر في الأربعين : وقد نازعهم أصحابنا فيه وعندي أن هذه المنازعة ضعيفة ؛ لأن هذه المنازعة إما أن تكون في المعنى أو في اللفظ ، أمّا المعنى ففيهما شيئان أحدهما أنه سبحانه قادر على خلق هذه الأصوات المخصوصة في جسم وهذا شيء لا يمكن النزاع فيه ، لأن خلق هذه

الأصوات في جسم ممكن والله سبحانه قادر على سائر الممكنات ، و ثانيهما أن الله سبحانه جعل تلك الحروف و الأصوات المخصوصة معرفة لكونه سبحانه مريدا لبعض الأشياء و كارها لبعض الأشياء ؛ وهذا أيضاً غير ممتنع ، و أما المنازعة في اللفظ فهو أن من فعل هذه الأصوات و الحروف المخصوصة في جسم فهل يسمى متكلماً في اللغة أم لا ؟ أو معلوم أن هذا البحث لغوي وليس للمعنى به تعلق أصلاً و رأساً ، فثبت بما ذكرنا أن هذا الذي يقوله المعتزلة مما نقول به و نعتز به و نسميه كلاماً لفظياً ، و إنما الخلاف بيننا و بينهم في أن نثبت أمراً فإننا نثبت أمراً آخر وراء ذلك و هو المعنى القائم بالنفس ، و نقول : و هو الكلام حقيقة فهو قديم قائم بذاته العلية و هو غير العبارات كما قدمناه ، إذ قد تختلف العبارات بالأزمنة و الأمكنة و الأقوام ، و لا تختلف ذلك المعنى النفسي .

من أقوى شبه المعتزلة

((و من أقوى شبه المعتزلة)) : يعني في نفي الكلام النفسي أنكم ((متفقون على أن القرآن اسم لما نقل إلينا بين دفتي المصاحف تواتراً ، و هذا)) : يعني القول أو الاتفاق ((يستلزم كونه مكتوباً في المصاحف مقروءاً بالألسن مسموعاً بالأذان و كل ذلك من سمات الحدوث بالضرورة)) - و حاصله : باننا متفقون على أن القرآن اسم لما نقل إلينا بين دفتي المصاحف تواتراً و لم نعرفه بغير ذلك ، و قلنا بأنه مكتوب بالمصاحف ، مقروء بالألسن ، مسموع بالأذان ، و كل ذلك يدل على حدوثه - نقل القاضي الباقلاني من أساطين الأشاعرة عن الشيخ أن كلام الله سبحانه القديم الأزلي مقروء بألسنتنا على الحقيقة ، محفوظ في قلوبنا ، مسموع بأذاننا ، مكتوب في مصاحفنا غير حال في شيء من ذلك كما أن الله سبحانه معلوم بقلوبنا ، مذكور بألسنتنا ، معبود في محاربنا غير حال في شيء من ذلك ، هذا مذهب الأشعري الذي صح عنه نقل الأئمة الثقات و هو موافق لما ذكر الإمام أبو حنيفة في " الفقه الأكبر " و نقل عنه المحققون الثقات من أصحابه .

..... و هو أي القرآن الذي هو كلام الله تعالى مكتوب في مصاحفنا أي بأشكال الكتابة و صور الحروف الدالة عليه محفوظة في قلوبنا أي بألفاظ مخيلة مرقّو بالسنتنا بحروفه الملفوطة المسموعة مسموع بأذاننا

الإشارة إلى الجواب

((و هو أي القرآن الذي هو كلام الله)) : القائم بذاته غير مخلوق . ((مكتوب في مصاحفنا)) : يعني على الحقيقة لا المجاز ، قال الله سبحانه : ﴿ في صحف مرفوعة مطهرة ﴾ وقال : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ وقال : ﴿ و الطور و كتاب مسطور في رق منشور ﴾ .

قال قدس سره ((أي بأشكال الكتابة وصور الحروف الدالة عليه)) : يعني على كلام الله القديم ((محفوظ في قلوبنا)) : يعني على الحقيقة لا المجاز قال الله سبحانه : ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم ﴾ ، وقال : ﴿ نزل به الروح الامين على قلبك ﴾ ، و أمثاله أيضاً لا تحصى كما لا يخفى ، قال قدس سره : ((أي بألفاظ مخيلة)) : يعني أن الله سبحانه أظهر صورها في الخيال و الحس ، فصارت ألفاظا مخيلة ، ((مرقّو بالسنتنا)) يعني على الحقيقة لا المجاز قال الله سبحانه : ﴿ لا تحرك به لسانك ﴾ ، وقال : ﴿ فاذا قرأناه فاتبع قرأه ﴾ ، وقال : ﴿ و قرأنا فرقناه لتقرأه على الناس ﴾ ، وقال : ﴿ فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ﴾ ، ﴿ و اذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لا يؤمنون ﴾ ، قال قدس سره : ((بحروفه الملفوطة المسموعة)) : التي دالة عليه المعبر بها عنه ، ((مسموع بأذاننا)) : يعني على الحقيقة لا المجاز قال الله سبحانه : ﴿ و اذا صرفنا اليك نفرأ من الجن يستمعون القرآن ﴾ ، و قال سبحانه ﴿ و اذا قرأ القرآن فاستمعوا له ﴾ ، وقال : ﴿ و اذا سمعوا ما انزل ﴾ .

..... بتلك أيضا غير حال فيها أي مع ذلك ليس حالا
 في المصاحف ولا في القلوب ولا في الألسنة ولا في الأذان ، بل
 هو معنى قديم قائم بذات الله تعالى يلفظ ويسمع بالنظم الدال
 عليه ويحفظ بالنظم المخيل ويكتب بنقوش وأشكال موضوعة
 للحروف الدالة عليه ، كما يقال جوهر مضيء محرق يذكر
 باللفظ ويكتب بالقلم ولا يلزم منه كون حقيقة النار صوتا و
 حرفا ، و تحقيقه : إن للشيء وجودا في الأعيان و وجودا في
 الأذهان و وجودا في العبارة و وجودا في الكتابة ، فالكتابة تدل
 على العبارة و هي على ما في الأذهان و هو على ما في الأعيان ،
 فحيث يوصف القرآن بما هو من لوازم القديم كما في قولنا :
 القرآن غير مخلوق فالمراد :

((بتلك أيضا)) : يعني بالحروف الملفوظة المسموعة ، و هو في جميع هذه
 المراتب قرآن حقيقة شرعية ، وإسناد كل من هذه الأربعة إلى القرآن إسناد حقيقي لا
 أنها إسناد مجازي ، فصدور العلماء و اللوح المحفوظ و لسان الرسول مخلوقة مع ما
 فيها ، فالقديم هو ما قام بالله سبحانه دون ما في الصدور و الألواح و الألسنة ، و
 هذا في غاية من الظهور - ((غير حال فيها)) : إشارة إلى المرتبة النفسية الأزلية ؛ فإنه
 من شوؤن الذاتية ، ولم تفارق الذات ولا تفارقها أبداً ، قال قدس سره : ((أي مع
 ذلك)) : الإطلاق و الوصف الذي ظاهره الحصول ، ((ليس حالا في المصاحف ولا في
 القلوب ولا في الألسنة ولا في الأذان)) : يعني أن القرآن بهذه الصفة الحقيقية ، ليس
 هو في المصاحف ولا في الصدور ولا في الألسنة ولا في الأذان ((بل هو معنى قديم
 قائم بذات الله تعالى)) : و القديم لا يحل في مكان و إلا لزم الحدوث ، يعني أن تنزل
 القرآن القديم القائم بذات الله سبحانه فيها غير قادم في قدمه ؛ لكونه غير حال في

شيء منها ، فإذا أمعنت النظر في قول أهل السنة رأيته دالاً على أن تنزل القرآن القديم القائم بذاته جل شأنه فيها غير قاذح في قدمه ، وهذا عين الدليل على أن تجلى القديم في مظهر حادث لا ينافي قدمه و تنزيهه ، وليس من باب الحلول و التجسيم و لا قيام الحوادث بالقديم ((يلفظ ويسمع بالنظم الدال عليه و يحفظ بالنظم المخيل ، و يكتب بنقوش و أشكال موضوعة للحروف الدالة عليه)) : فالقرآن كلامه سبحانه غير مخلوق ، و إن تنزل في هذه المراتب الحادثة و لم يخرج عن كونه منسوباً إليه سبحانه .

قول ابن قيم رداً على ابن حزم وقول الشارح رداً على ابن قيم

قال ابن قيم في "النونية" راداً على ابن حزم ؛ و أتى ابن حزم فقال : ما للناس قرآن و لا اثنان ؛ بل أربع كل يسمى بالقرآن ، و ذلك قول بين البطلان ، (١) هذا الذي يتلى (٢) و المرسوم (٣) المحفوظ (٤) و المعنى القديم ، فالشيء شيء واحد لا أربع ، فدمى ابن حزم ملة القرآن انتهى كلامه . أقول راداً : عليه هذا صبي العقل هذا لم يفهم كلام ابن حزم .

مراد ابن حزم أن القرآن هو المعنى و هو واحد له وجود في نفسه و يُتلى و يُرسم و يحفظ ، فيوجد في اللفظ و الخط و الصدر ، و يطلق على الثلاثة أيضاً قرآن فاللفظ مشترك بين الأربعة - و من المضحك المبكي و قبيحة ابن قيم و شيخه في ابن حزم ، و هو إمام هما في غالب المسائل الفرعية التي شذ بها عن الجماعة و أنت تراهما يطعنان فيه طعنا مرا في المسائل الاعتقادية ، و هو أقرب إلى الحق في غالب تلك المسائل و لا سيما في مسألة القرآن ، و هو من المنزهين دون هما ، و هو عدو لدود للمجسمة و في الفصل أبحاث جيدة تتعلق بقمع أهل التجسيم ، و قول ابن حزم بكون القرآن مشتركاً بين تلك الأربعة موافق لكتاب الله سبحانه ، فافهم - ((كما يقال : النار جומר مضيء محرق)) : و هذا بمنزلة قولنا : الكلام صفة أزلية قديمة ((يذكر باللفظ)) : و هذا بمنزلة قولنا : مقررّ بالألسنة ((و يكتب بالقلم)) : و هذا بمنزلة قولنا : مكتوب في

المصاحف ((و لا يلزم منه)) : من اتصاف النار بهذه الصفات العرضية بالعرض ((كون حقيقة النار صوتا و حرفا)) : و هذا في غاية الظهور بالنسبة إلى المتفطنين في الأحكام الدينية و العقلية -

تحقيق الجواب

((و تحقيقه)) : يعني تحقيق هذا الجواب ، و حاصله : أن إطلاق القرآن على هذه الأمور باعتبار علاقة الدلالة ، و إليه أشار بقوله : ((إن للشيء)) : يعني لكل موجود ((وجودا في الأعيان)) : في الخارج و في الواقع : ((و وجودا في الأذهان)) : يعني في النفس وقواها ، ((و وجودا في العبارة)) : يعني في الألفاظ ، ((و وجودا في الكتابة)) : يعني بأيدينا بواسطة نقوش الحروف ، فالقرآن مكتوب محفوظ مقررّ ، و أنه غير مخلوق ، يعني موجود أزلاً و أبداً اتصافاً له باعتبار الوجودات الأربعة التي هي لكل موجود ، و هي الوجود الخارجي ، و الوجود الذهني، و الوجود في العبارة ، و الوجود في الكتابة ((فالكتابة تدل على العبارة و هي على ما في الأذهان و هو على في الأعيان)) : فالقرآن باعتبار وجوده الذهني محفوظ في الصدور ، باعتبار وجوده اللساني مقررّ بالألسنة ، و باعتبار وجوده الكتابي مكتوب في المصاحف ، و باعتبار وجوده الخارجي - و هو المعنى القائم بالذات المقدس - ليس في الصدور و لا في الألسنة و لا في المصاحف ، و أما الألفاظ المؤلفة من الحروف فإنها أصوات ، و هي أعراض مترتبة متعاقبة سيالة -

الزائد على جواب شبهة المعتزلة

((فحيث)) يعني في موضع و محل ((يوصف القرآن بما)) : يعني بوصف و نعت ((هو من لوازم القديم كما في قولنا : القرآن غير مخلوق فالمراد)) : يعني في ذلك الموضع .

..... حقيقته الموجودة في الخارج ، و حيث يوصف بما هو من لوازم المخلوقات والمحدثات يراد به الألفاظ المنطوقة المسموعة ، كما في قولنا : قرأت نصف القرآن او المخيلة كما في قولنا : حفظت القرآن ، أو يراد به الأشكال المنقوشة كما في قولنا : يحرم للمحدث مس القرآن . و لما كان دليل الأحكام الشريعة هو اللفظ دون المعنى القديم عرفه أئمة الأصول بالمكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر وجعلوه اسما للنظم و المعنى جميعا أي للنظم من حيث الدلالة على المعنى لا لمجرد المعنى، و اما الكلام القديم الذي و هو صفة الله تعالى فذهب الأشعري إلى أنه ليجوز أن يسمع

((حقيقته الموجودة في الخارج)) : يعني المراد به الكلام النفسي ، هو المعنى القائم بذات الله سبحانه ، ((و حيث)) : يعني في موضع و محل ، ((يوصف بما)) : يعني بوصف و نعت ((هو من لوازم المخلوقات والمحدثات)) : من التأليف والإنزال و التنزيل و غير ها ((يراد به الالفاظ المنطوقة المسموعة كما في قولنا : قرأت نصف القرآن)) : يعني الألفاظ المنطوقة المسموعة ، هذا مثال وجود الشيء في العبارة ، ((أو المخيلة)) : يعني صورها الخيالية : ((كما في قولنا : حفظت القرآن)) : هذا مثال وجود الشيء في الأذهان ، ((أو يراد به الأشكال)) المنتقوشة في الصحف والأوراق ، قلتُ : إن السلف قالوا : إن كلام الله سبحانه موجود ، و هو صفة من صفاته ، و قالوا مع ذلك : هو فيما بيننا متلو و مسموع و محفوظ و مكتوب - و لم يتحاشوا من ذلك ، و ذلك لبلوغهم منزلة الحقائق فلم يكن بينهم شبهة - و لما كان لقائل أن يقول: لو كان القرآن مقولا بالاشتراك على الكلام النفسي و على الكلام اللفظي ، لما عرفه أئمة الأصول بما يدل على الكلام اللفظي ، فأجاب عنه بقوله :

جواب دخل مقدر

((و لما كان دليل الاحكام الشرعية هو اللفظ دون المعنى المقديم عرفه أئمة الأصول بالمكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر و جعلوه اسماً للنظم و المعنى جميعاً)) : يعنى المعرف للقرآن بهذا التعريف أئمة الأصول و إنما فعلوا ذلك لأنهم بصدد بيان أدلة الأحكام الشرعية ، و هي ألفاظ القرآن لا الصفة القديمة ؛ فجعلوه اسماً للنظم و المعنى الذي يدل عليه جميعاً ((أي للنظم من حيث الدلالة على المعنى)) : و مرادهم أنه موضوع للفظ فقط من حيث دلالته على معناه ، و إلزام الجمع في التعريف بين الحقيقة و المجاز ((لا لمجرد المعنى)) : من غير لحاظ اللفظ و لا لمجرد اللفظ : من غير لحاظ المعنى .

اختلاف أهل السنة من الأشعرية و الماتريدية في الكلام القديم

هل يسمع أم لا

ثم بعد اتفاق أهل السنة من الأشعرية و الماتريدية و غيرهم على أن الله تعالى متكلم بكلام نفسي و هو صفة له قائمة بذاته العلي لم يزل متكلماً به ، اختلفوا في هل يسمع أم لا ؟ فقال المصنف : ((و أما الكلام القديم الذي هو صفة الله تعالى ، فذهب الأشعري إلى أنه يجوز أن يسمع)) : يعني ذهب الشيخ أبو الحسن الأشعري و من تابعه إلى أنه يجوز سماعه ، و هذا قريب من قول أبي منصور الماتريدي ؛ فإنه أشار في أول مسئلة الصفات من " كتاب التوحيد " إلى جواز سماع ما وراء الصوت ، فإنه قال : " العلم بالأصوات و خفيات الضمائر هو الكلام في الشاهد عنده " ، فجوّز إسماع ما ليس بصوتٍ ،

وقد ساق صاحب " التبصرة الأدلة " من عبارة الماتريدي في " كتاب التوحيد " ما يقتضي جواز سماع ماليس بصوت ، ثم قال : فجوّز - يعني الماتريدي - سماع ماليس بصوت ، و عن هذا قال مفتي الثقلين في روح المعاني : والإمام الماتريدي أيضاً يجوز سماع ماليس بصوت على وجه خرق العادة : كما يدل عليه كلام صاحب التبصرة في " كتاب التوحيد " ، فمانقله ابن الهمام عنه من القول بالاستحالة فمراده الاستحالة ، العادية فلا خلاف بين الشيخين ، قال القاضي الباقلاني من أساطين الأشاعرة : إن كلام الله سبحانه ليس بمسموع على العادة الجارية : بل يسمع صوت القاري فحسب ، ولكن من الجائزات أن يسمع كلامه على قلب العادة الجارية أي على خلافها : كما سمع سيدنا موسى عليه السلام على الطور ، و سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم ليلة المعراج ، أقول : و هذا ما ذهب إليه الشيخ اختاره الحجة ، و مشى عليه السنوسي في شرح الكبرى ، فتدبر .

..... و منعه الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائني و هو اختيار الشيخ أبي منصور الماتريدي ، فمعنى قوله تعالى حتى يسمع كلام الله يسمع ما يدل عليه ، كما يقال سمعت علم فلان ، فموسى سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى ، لكن لما كان لا بواسطة الكتاب و الملك خص باسم الكليم . فإن قيل : لو كان كلام الله تعالى حقيقة في المعنى القديم مجازاً في النظم المؤلف يصح نفيه عنه بأن يقال ليس النظم المنزل المعجز المفصل إلى السور والآيات كلام الله تعالى والإجماع على خلافه ، و أيضاً المعجز المتحدى به

مذهب الأستاذ أبي إسحاق الإسفرائني والشيخ أبي منصور

الماتريدي

((و منعه الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائني و هو اختيار الشيخ أبي منصور الماتريدي)) : يعني ذهب الإمام علم الهدى أبو منصور الماتريدي مرة أخرى إلى أن الكلام النفسي لا يسمع بوجه من الوجوه : إذ يستحيل سماع مالمس من جنس الحروف والأصوات : إذ السماع في الشاهد يتعلق بالصوت ويدور وجوداً وعدماً ، و يستحيل إضافة كونه مسموعاً إلى غير الصوت ، و كان القول بجواز سماع مالمس بصوت خروجاً عن المعقول ، قال النسفي في متن "العمدة" : "وعنده أي عند الشيخ أبي منصور الماتريدي إن كلام الله النفسي لا يجوز أن يسمع بوجه من الوجوه -

استدلال مشائخ الأشاعرة من النقل والعقل

و استدلل مشائخ الأشاعرة بقوله سبحانه : ﴿ وَ قَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ وقوله : ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ، من

حيث أن الظاهر سماعه كلامه الأزلي النفسي ، ولذا قال في " المقاصد " : اختصاص موسى عليه السلام بكليم الله لسماعه كلامه سبحانه الأزلي بلا صوت ولا حرف ، و من العقل أن السماع يتعلق بكل موجود الشيخ كما تتعلق الرؤية به ، و الكلام النفسي موجود فيجوز سماعه .

احتجاج مشائخ الحنفية

و احتج مشائخ الحنفية بقوله جلّ شأنه : ﴿ فلما رأها نودى يا موسى ﴾ حيث كان المسموع هو الصوت ، لأنه سبحانه رتب النداء على أنه رأى النار ؛ فالمرتب على المحدث محدث فالنداء محدث ، و بقوله سبحانه : ﴿ و نادينا من جانب الطور الأيمن ﴾ ، و بقوله : ﴿ و إذ نادى ربك موسى ﴾ و بقوله : ﴿ نودى من شاطئ الوادي الأيمن ﴾ و بقوله : ﴿ و إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى ﴾ ، و بقوله : ﴿ نودى ان بورك من في النار ﴾ ، ((فمعنى قوله تعالى)) : إشارة إلى الجواب من النقل ((حتى يسمع كلام الله يسمع مايدل عليه)) : يعني لا نسلم أن سيدنا موسى عليه السلام سمع كلام الله سبحانه ؛ بل سمع صوتاً دالاً على كلام الله سبحانه ، و الدال غير المدلول فالمسموع هو الدال لانفس الكلام ((كما يقال : سمعت علم فلان)) ، و بضرورة العقل أن حقيقة العلم لا تسمع ، بل معناه سمعت كلاماً دالاً على علمه ((فموسى عليه السلام سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى)) .

لم خص موسى عليه السلام بكونه كليماً

ولما كان لقائل أن يقول: إن غير موسى عليه السلام من الأنبياء سمع صوتاً دالاً على كلام الله سبحانه، فلم خصّ سيدنا موسى عليه السلام بكونه كليم الله ؟ فأجاب عنه بقوله : ((لكن لما كان لا بواسطة الكتاب والملك خص باسم الكليم)) : يعني بين هذين السماعين بعد المشرقين ؛ فإن الذي يستمع كلامه سبحانه بلا واسطة

لا يساويه من يسمعه بالوسائط، وإن سماعه الصوت على وجه فيه خرق للعادة إذ هو سماع بغير واسطة الكتاب والملك : بل إن الله جل شأنه أفهمه كلامه بإسماعه صوتاً بتخليقه من غير أن يكون ذلك الصوت منسوباً للأحد من الخلق إكراماً له ، فلهذا خص بأنه كلم الله دون غيره ، وقد ذكر قدس سره في " شرح المقاصد " لخصوصه وجوماً : أحدهما : أنه سمع كلامه الأزلي بلا صوت و حرف ، و ثانيهما : إنه سمعه بصوت من جميع الجهات على خلاف العادة ، و ثالثها : أنه سبحانه أفهم كلامه بصوت بلا كسب لأحد من خلقه . و أما الجواب من العقل فقال القاضي البيضاوي الذي له يد بيضاء في التحقيق والتدقيق من جملة مشايخ الأشاعرة في " اشاراته " : الصوت والحرف شرط لحقيقة السماع ، و أماراته الدوران معه وجوداً و عدماً ، فلا يُقاس على الرؤية ، لأن الشروط المذكورة للرؤية شروط عادية ، فقياس السماع على الرؤية بلا جامع ، هذا ،

الاعتراض من جانب المعتزلة

((فإن قيل)) : من جانب المعتزلة و منشأه ما سبق أنه حقيقة في المعنى القديم لا غير؛ لكن التحقيق أن المراد أنه حقيقة بالنظر إلى الواقع لا بالنظر إلى وضع اللفظ فلا يرد شيء ((لو كان كلام الله تعالى حقيقة في المعنى القديم مجازاً في النظم المؤلف يصح نفيه عنه بأن يقال)) : يعني في الشريعة : ((ليس النظم المنزل المعجز المفصل إلى السور و الآيات كلام الله تعالى والإجماع على خلافه .

الشبهة الثانية

((و أيضاً المعجز المتحدى به)) : يعني المطلوب بالمعارضة بالمثل ، قال الله سبحانه : ﴿ فاتوا بسورة من مثله ﴾ .

..... هو كلام الله تعالى حقيقة مع القطع بأن ذلك إنما يتصور في النظم المؤلف المفصل إلى السور ؛ إذ لا معنى لمعارضة الصفة القديمة ؟ قلنا التحقيق : أن كلام الله تعالى اسم مشترك بين الكلام النفسي القديم ومعنى الإضافة كونه صفة له تعالى ، وبين اللفظي الحادث المؤلف من السور والآيات ومعنى الإضافة أنه مخلوق الله تعالى ليس من تاليفات المخلوقين

((هو كلام الله تعالى حقيقة مع القطع بأن ذلك)) : يعني طلب المعارضة ((إنما يتصور في النظم المؤلف المفصل إلى السور إذ لا معنى لمعارضة الصفة القديمة)) : إذ بضرورة العقل أنه لا يقف على الصفة القائمة بذاته العلى إلا المؤلد من الباري سبحانه .

الجواب من جانب أهل الحق

((قلنا إن التحقيق)) : يعني أن مذهب الحق ((أن كلام الله تعالى اسم مشترك)) : سواء كان بالاشتراك المعنوي أو اللفظي ((بين الكلام النفسي القديم ومعنى الإضافة)) : يعني إضافة الكلام إلى الباري سبحانه ((كونه صفة له تعالى وبين اللفظي الحادث المؤلف من السور والآيات ومعنى الإضافة)) : يعني في هذا القول : كلام الله جل شأنه ((أنه مخلوق الله تعالى ليس من تاليفات المخلوقين)) : قال ابن أبي الشريف : إن القرآن يطلق لمعنيين : أحدهما : الكلام النفسي القائم بالذات الرفيعة ، الثاني : اللفظ المنزل ، وهل إطلاقه عليهما بالاشتراك أو هو في الثاني مجاز مشهور الظاهر ، قال : ثم إن القرآن بالمعنى الأول محل نظر لعلماء أصول الدين ، و بالمعنى الثاني محل نظر لعلماء العربية والفقه وأصوله ، قال : وجه الإضافة في تسمية كلام الله بالمعنى الأول أنه صفة الله سبحانه ، و بالمعنى الثاني أنه سبحانه أنشأه برقومه في اللوح المحفوظ ، قال الله سبحانه : ﴿ انه لقول رسول كريم ﴾ أو لسان النبي ﷺ ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ نزل به الروح الامين على قلبك ﴾ ،

..... فلا يصح النفي أصلا و لا يكون الإعجاز والتحيلا في كلام الله تعالى . و ما وقع في عبارة بعض المشايخ من أنه مجاز فليس معناه أنه غير موضوع للنظم المؤلف بل أن الكلام في التحقيق و بالذات اسم للمعنى القائم بالنفس ، و تسمية اللفظ به و وضعه إنما هو باعتبار دلالة على المعنى فلا نزاع لهم في الوضع و التسمية . و ذهب بعض المحققين إلى أن المعنى في قول مشايخنا : كلام الله تعالى معنى قديم ، ليس في مقابلة اللفظ حتى يراد به مدلول اللفظ و مفهومه بل في مقابلة العين و المراد به ما لا يقوم بذاته كسائر الصفات ، و مرادهم أن القرآن اسم لللفظ و المعنى شامل لهما . و هو قديم لا كما زعمت الحنابلة من قدم النظم المؤلف المرتب الأجزاء

((فلا يصح النفي أصلا)) يعني لما كان كلام الله سبحانه مشتركا اشتراكا لفظيا ، يطلق على كل من النظم والصفة القديمة إطلاقا حقيقيا ؛ فلا يصح نفي الكلام عن النظم ؛ لأن الحقيقة لا يصح سلبها عن الموضوع له ، فكلام الله جل شأنه حقيقة في الكلام النفسي والكلام اللفظي فلا يرد من هذين المعتزلة .

الجواب عن الشبهة الثانية

((و لا يكون الإعجاز و التحدي)) : جواب عن الشبهة الثانية ((إلا في كلام الله تعالى)) : و هو النظم المؤلف ((حقيقته)) : لأنه الموضوع له أيضا كما لا يخفي ، قال الحافظ عز بن عبد السلام : و من زعم أن المعجزة قديمة فقد جهل عن حقيقتها ، و قال ابن الحاجب : و لا يستقيم أن يقال : إن كلام الله القديم القائم بذاته هو الذي جعله الله معجزة لرسوله ؛ فان ذلك يعلم بأدنى نظر ، قال

الحافظ السخاوي : والصفة القديمة القائمة بذاته سبحانه ليست المعجزة ؛ لأن المعجزة ما تحدّى به الرسول ﷺ و طالب بالإتيان بمثله ، و معلوم أنه لم يتقدم بصفة الباري القديمة و ما طالب بالإتيان بمثله ، و من اعتقد ذلك و صرح به أو دعا إليه فهو ضال مبتدع ؛ بل خارج عما عليه العقلاء .

الاعتراض والجواب

و لقائل أن يقول : إن بعض المشائخ من أهل الجماعة قال : إن كلام الله سبحانه مجاز في الكلام اللفظي ؟ فأجاب عنه بقوله : ((و ما وقع في عبارة بعض المشائخ أنه مجاز فليس معناه أنه)) يعني كلام الله سبحانه ((غير موضوع للنظم المؤلف)) : و ذلك ظاهر بأدنى تأمل في علامات الحقيقة والمجاز ، إذ اللفظي يتبادر عند إطلاق لفظ الكلام ، والتبادر علامة الحقيقة ((بل إن الكلام في التحقيق و بالذات اسم للمعنى القائم بالذات)) : يعني بالذات المدركة ((و تسمية اللفظ به)) : يعني بالكلام ((و وضعه)) : يعني وضع اللفظ لذلك يعني للكلام ((إنما هو باعتبار دلالة على المعنى)) و لا يلزم من كون اللفظ دليلاً على النفسي أن يكون إطلاق الكلام على اللفظي مجازاً ، قال الشيخ محمد بن يوسف السنوسي في " شرح أم البراهين " : كلام الله تعالى القائم بذاته ، هو صفة أزلية ليس بحرف و لا صوت و لا يقبل العدم ، و ما في معناه من السكوت و لا التبعض و لا التقديم و لا التأخير ، ثم هو مع وحدته متعلق أي دال أزلاً و أبداً على جميع معلوماته التي لا نهاية لها ، و هو الذي عبر عنه بالنظم المعجز المسمى أيضاً بكلام الله تعالى حقيقة لغوية لوجود كلامه فيه بحسب الدلالة لا بحسب الحلول ، و يسميان قرأنا أيضاً ، و كنه هذه الصفة و سائر صفاته محجوب عن العقل ، فليس لأحد أن يخوض في الكنه بعد معرفة ما يجب لذاته و لصفاته ، ((فلا نزاع لهم في

الوضع)) فهذا لا ينفي أنه موضوع له ، بل خلافهم في التحقيق و الواقع ((و التسمية)) : لأن التسمية يكون حقيقة أيضا ، فتفكر .
 ((و ذهب بعض المحققين)) : صاحب "المواقف" و "العقائد العضدية" من مدقيقي مشائخ الاشاعرة .

ترجمة صاحب المواقف والعقائد العضدية

قال الحافظ في " الدرر الكامنة " هو عبد الرحمن بن أحمد بن عبدالغفار عضد الدين الأيحي ولد بـ " أيج " من نواحي " شيراز " بعد السبع مائة و أخذ عن مشائخ عصره ، و لازم الشيخ زين الدين الهنكي تلميذ البيضاوي و غيره ، و كان أكثر إقامته بالسلطانية ، ثم ولي في أيام أبي سعيد قضاء الممالك و كان إماما في المعقول قائما بالأصول والمعاني والعربية ، مشاركا في الفنون ، وله " المواقف " في علم الكلام و غير ذلك ، و أنجب تلامذة عظاما اشتهروا في الأفاق مثل : " شمس الدين الكرمانى " ، و " ضياء الدين العفيفى " ، و " سعد الدين التفتازانى " و غيرهم ، و وقع بينه و بين الأبهري منازعات و ماجريات ، و كان كثيرا المال جدا كريم النفس كثير الإنعام على الطلبة ، و جرت له محنة مع صاحب كرمان فحبسه بالقلعة فمات مسجوناً في سنة ٧٥٦هـ ، أرخه السبكي ، و أرخه السنوي قبل ذلك ، فتدبر .

ذهب بعض المحققين الى ان القرآن اسم للنظم والمعنى جميعا وهو قديم

((إلى أن المعنى في قول مشايخنا: كلام الله تعالى معنى قديم ، ليس في مقابلة اللفظ حتى يراد به مدلول اللفظ و مفهومه)) : يعني المفهوم منه والمقصود منه ؛ ((بل في مقابلة العين)) : والمراد بالعين الذات والجوهر القائم بذاته ؛ ((والمراد به)) : يعني بالمعنى القديم ((ما لا يقوم بذاته)) : فحينئذ

يشتمل على اللفظ والمعنى ، لأن كلا منهما ليس قائماً بذاته ((كسائر الصفات)) : من العلم والقدرة والإرادة وغيرها ، يقول القاضي : إن مذهب الشيخ أن الألفاظ أيضاً قديمة ، و ذلك لأن لفظ المعنى يطلق تارة على مدلول اللفظ و أخرى على القائم بالغير ، والشيخ لما قال : الكلام هو المعنى النفسي ، فهم الأصحاب منه أن مراده به مدلول اللفظ ، و هو القديم عنده. و أما العبارات فإنما تسمى كلاماً مجازاً لدلالته على ما هو الكلام الحقيقي ؛ حتى صرحوا بأن الألفاظ حادثة على مذهبه ، و لكنها ليست كلاماً له سبحانه حقيقة ، و هذا الذي فهموه لوازم كثيرة فاسدة ((و مرادهم أن القران اسم لللفظ والمعنى)) : لأن المراد من المعنى ما يقابل الذات والعين فيعم اللفظ ؛ فيكون اللفظ قديماً في ذات الله سبحانه ، حادث في الإنسان ((شامل لهما)) : يعني اللفظ والمعنى ، فيجب حمل كلام الشيخ على أنه أراد به المعنى الثاني، فيكون الكلام النفسي عنده أمراً شاملاً للفظ والمعنى جميعاً قائماً بذاته الرفيعة ((و هو)) : يعني الكلام الذي اسم للنظم والمعنى جميعاً ((قديم)) : صفة أزلية .

اعتراض وجواب

ولقائل أن يقول : إن النظم متصف بسمات الحدوث كما سبق ، فأنى يكون قديماً و ما وجه التشنيع على الحشوية القائلين بقدم الحروف ؟ . أشار إلى الجواب عن ذلك بقوله : ((لا كما زعمت الحنابلة)) : يعني الحشوية ، أبو العباس بن تيمية وأشياعه .

تعريف الطائفة الحشوية

هذه طائفة من الجدليين خرجوا عن قيد الشرع ، و لم يستفيدوا بجدهم الهدى ، و لم يبلغوا درجة الحقائق ، و لم يتجاوزوا عن منزلة

المحسوسات والموهومات ، فأخذوا الكلام محسوساً ، فهم الذين جمعوا بين الاسرائيليات والجاهليات و أنواع الخرافات والأخبار الموضوعات ؛ كما يظهر من مصنفاتهم في العلو والسنة والتوحيد والنحل . أين في الصحاح والسنن : ينزل بذاته ، ويستوي على العرش استواء استقرار أو جلوس ، و يتحرك و يتكلم بصوت " ؟ فلو وقفوا ؛ حيث وقف الكتاب والسنة والبرهان العقلي و أبوا الخوض في الصفات ، بعقولهم الضئيلة ؛ لكانوا على الهدى لكنهم حادوا و زادوا - قاتلهم الله - ما أوقحهم و أشنع إفكهم على أهل الحق ، و كم من مصاب في عقله و دينه يتكلم في هذه الأبحاث بدون علمٍ و لا فهم - نسأل الله المعافاة -

مذهب الحنابلة الحشوية من قدم النظم المؤلف المرتب

الأجزاء وإنه بديهي الاستحالة

((من قدم النظم المؤلف المرتب الأجزاء)) : و قد سبق أقوال ابن تيمية و ابن قيم . قال ابن تيمية : و ليس في الحجج العقلية و النقلية ما يدل على حدوث نفس حروف القرآن ، و قال : استدلووا على حدوث نفس حروف القرآن بمادل على حدوث أفعال العباد و ما تولد عنها ، و هذا من أقبح الغلط ، و قال : و التلاوة في نفسها اللتي هي حروف القرآن و ألفاظه غير مخلوقة -

..... فإنه بديهي الاستحالة للقطع بأنه لا يمكن التلفظ بـ "السين" من بسم الله إلا بعد التلفظ بـ "الباء" ، بل المعنى أن اللفظ القائم بالنفس ليس مرتب الأجزاء في نفسه كالقائم بنفس الحافظ من غير ترتيب الأجزاء وتقدم البعض على البعض

((فإنه بديهي الاستحالة)) : قال شارح " أم البراهين " السنوسي قدس سره :
إذ الكلام الذي يكون بالحروف والأصوات ولو بلغ غاية البلاغة والفصاحة وكان كاملاً بالنسبة إلى الحوادث الناقصة فهو بالنسبة إلى مقام الألومية الأعلى نقيصة عظيمة ؛ إذ فيه رذيلتان : إحداهما : رذيلة العدم الذي يجب للحروف والأصوات سابقا ولاحقا ، ويستلزم حدوث من اتصف به ، وإي نقيصة أعظم من نقيصة الحدوث و الملازمة ربة الافتقار على الدوام ، والثانية : رذيلة البكم الذي هو لازم للحروف والأصوات ؛ لأنه لما استحال اجتماع حرفين في آن واحد فضلا عن الكلمتين فضلا عن الكلامين تبكم المتكلم بالحرف والصوت ، واحتبس عن أن يدل على معلومات له في آن واحد بصفة الكلام المركب من الحروف والأصوات ، فلو كان كلام مولانا تعالى بالحروف والأصوات لزم زيادة على رذيلة الحدوث اتصافه سبحانه وتعالى عن ذلك بالحبسة ، فقد ظهر لك بهذا أن الكلام الذي يكون بالحروف والأصوات و ما في معناه من كلامنا النفسي ملازمان لمعنى البكم فيستحيل اتصافه سبحانه بمثلهما -

الدليل على بدهية الاستحالة

((للقطع بأنه لا يمكن التلفظ بالسين من بسم الله إلا بعد التلفظ بالباء)) : و هذا أظهر من الشمس في نصف النهار ؛ بل الحشوية الجهلة يقولون : إن حركة

شفتيه أو صوته أو كتابته بيده في الورقة هو عين كلام الله القائم بذاته العلية ، وفي " شعب الإيمان " للحلي : و من زعم أن حركة شفتيه أو صوته أو كتابته بيده في الورقة هو عين كلام الله القائم بذاته فقد زعم أن صفة الله قد حلت بذاته و مست جوارحه و سكنت قلبه ، و أيُّ فرق بين من يقول هذا ، و بين من يزعم من النصارى : إن الكلمة اتحدت بيسى بن مريم ، و الحق أن اعتقاد الصوت و الحرف في كلام الله سبحانه خطر جداً ، و ذلك نصيب الحشوية من العقل والدين و هل يعد من علماء الإسلام ؛ بل من عامة المسلمين من يروج الباطل ؟ و هو يعلم أنه باطل . و من العجب كل العجب أن ابن قيم كلما تراه يزداد تهويلاً و صراخاً باسم السنة في " النونية " و " الصواعق " و " شفاء العليل " يجب أن تعلم أنه في تلك الحالة متلبس بجريمة خداع خبيث و أنه في تلك الحالة نفسها في صدد تلبس ، و إنما تلك التهويلات منه لتحذير العقول عن الانتباه مما يريد أن يدسه في غضون كلامه من البدعة المخزية كما يظهر من مطالعة " النونية " بتبصر و يقظة ، و إنما اختاره طريق النظم في " النونية " ليسهل عليه أن يهيم في كل وادٍ - و الله تعالى ينتقم منه يوم التناد - بل بمعنى : يعني لم يرد هذا المحقق قدم النظم بهذا المعنى .

مراد هذا المحقق من قدم النظم

((بل المعنى أن اللفظ القائم بالنفس)) : يعني بذات الباري سبحانه . ((ليس مرتب الأجزاء في نفسه)) : كما قالت الحشوية بل القائم بنفسه سبحانه لا ترتيب فيه . ((كالقائم بنفس الحافظ)) : يعني كاللفظ القائم بنفس الحافظ فذلك اللفظ قائم به . ((من غير ترتيب الأجزاء و تقدم البعض على البعض)) .

..... و الترتب إنما يحصل في التلفظ و القراءة لعدم مساعدة الآلة ، و هذا معنى قولهم : المقرؤ قديم و القراءة حادثة ، و اما القارئ بذات الله تعالى فلا ترتب فيه حتى أن من سمع كلامه تعالى سمعه غير مرتب الأجزاء لعدم احتياجه إلى الآلة . هذا حاصل كلامه و هو جيد لمن يتعقل لفظا بالنفس غير مؤلف من الحروف المنظوقة أو المخيلة المشروط وجود بعضها بعدم البعض و لا من الأشكال المرتبة الدالة عليه ، و نحن لا نتعقل من قيام الكلام بنفس الحافظ إلا كون صور الحروف مخزونة مرتسمة في خياله بحيث إذا التفت إليها كانت كلاما مؤلفا من ألفاظ متخيلة أو نقوش مرتبة و إذا تلفظ كانت كلاما مسموعا

الاعتراض والجواب

و ما يقال : من أن الحروف والألفاظ مترتبة متعاقبة ؟ ، فجوابه : ((و الترتب إنما يحصل في تلفظ والقراءة لعدم مساعدة الآلة)) : يعني و إنما يحصل الترتيب في التلفظ في الشاهد و استماعه فيه ضرورة عدم مساعدة الآلة له على النطق بما في نفسه مرة واحدة ؛ إذ بضرورة العقل أن الجوارح والآلات من الحلق و اللسان و الشفة و الأسنان ، إنما وضعت للعباد ليتوصلوا بها إلى قصدهم ، و هي كلها نقص و آفات . ((و هذا)) : يعني أن الترتيب إنما يحصل في التلفظ معنى قولهم : ((المقرؤ قديم)) و هي الألفاظ القائمة بذات الله سبحانه والقراءة حادثة ، و ذلك لأن أفعال العباد و هي حركاتهم التي تظهر عنها التلاوة فلا خلاف بين السلف أن أفعال العباد مخلوقة ، و أما

القائم : يعني اللفظ القائم ((بذات الله تعالى فلا ترتب فيه)) : يعني اللفظ القائم بذاته العلية لا ترتيب فيه و لا تقدم و لا تأخر مثل القائم بالقوة الحافظة منا ((حتى أن من سمع كلامه)) : ولذلك إذا سمع أحد كلام الله سبحانه ((سمعه غير مرتب الأجزاء)) : فإنما يسمعه غير مرتب ((لعدم احتياجه إلى الآلة)) : يعني وأما من له الحول والقوة جل جلاله فإنما هو إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون ، بدون آلة و جارحة و لا علاج و لا مزاولة ، يريد الشيء فيحدث ، قال بعض المشايخ : قال العضد : إنه بحروف و أصوات قديمة يلزم عليه ، كما قال المتأخرون : إن كلامه تعالى فيه التقدم والتأخر ، لكن أجيب عن ذلك بأن حروفنا جاءها التقدم والتأخر من اختلاف المخارج ، و من تنزه عن ذلك تنزه كلامه عن ذلك ، و هذا الكلام إنما سرى للعضد من الحشوية فلا يعول عليه ، و قال جماعة - نسبوا أنفسهم إلى الحنابلة - يعني الحشوية : إنه بحروف و أصوات ؛ لكن إن نسبت إليه تعالى كانت قديمة و إن نسبت إلى الحوادث كانت حادثة ، و لا يخفي بطلان هذا الكلام ، هذا كلامه بحروفه ، فافهم .

مبنى مذهب هذا المحقق

((هذا حاصل كلامه)) : يعني بعض المحققين ((و هو جيد)) : و إليه ذهب من فحول أهل الكلام البحر الذخار الشهرستاني في نهاية الأقدام ، و اختاره السيد الشريف في "شرح المواقف" ، قال : و لا شبهة في أنه أقرب إلى الأحكام الظاهرة المنسوبة إلى قواعد الملة ((لمن يتعقل لفظاً قائماً بالنفس غير مؤلف من الحروف المنطوقة أو المخيلة المشروط وجود بعضها بعدم البعض و لا من الأشكال)) : يعني غير مؤلف من الأشكال ((المرتبة الدالة عليه)) : يعني على اللفظ القائم بالنفس ، والمعنى : أن هذا الكلام إنما

يستقيم إذا تصورنا تصوراً صحيحاً لفظاً قائماً بالذات غير مرتب الأجزاء ولا مؤلف من حروف منطوقة أو مخيلة أو منقوشة ((ونحن لا نتعقل)) : رد من الشارح البارع على هذا المذهب ، ولم يرض به .

الرد على هذا المذهب

((من قيام الكلام بنفس الحافظ إلا كون صور الحروف مخزونة ، مرتسمة في خياله)) : يعني في خيال الحافظ ((بحيث إذا التفت إليها كانت كلاماً مؤلفاً من ألفاظ متخيلة أو نقوش مرتبة و إذا تلفظ كانت كلاماً مسموعاً)) : و حاصله : إن ما ذهب إليه هذا المحقق من كون النظم قائماً بذاته سبحانه غير مرتب الأجزاء ولا مؤلف من حروف متعاقبة لا نتعقله ؛ لأنه قاسه على الشاهد ، ونحن لا نتعقله في الشاهد إلا على الوجه الذي ذكرناه ، فإن المرتسم في خزانة الحافظ إنما يكون غير مرتب ما دام ذاهاً عنه ، فإذا ما التفت إليه وجده كلاماً مؤلفاً من ألفاظ مرتبة ؛ كما يشهد به المنصف ، والله سبحانه يستحيل عليه الذموم ، فوجب أن الكلام القائم به مرتباً ، هذا نهاية الكلام في مسألة الكلام والحمد لله الميسر لكل مرام -

البحث في بيان صفة التكوين

صفة التكوين والدليل عليه

أقول قبل الشروع في إقامة البرهان على المطلوب : اختلفوا في أن تكون الأشياء هل يتعلق بقوله سبحانه : كن ، أم لا ؟ ذهب الإمام علم الهدى أبو منصور الماتريدي و من تابعه إلى أن وجود الأشياء ليس متعلقاً بـ " كن " ، بل وجودها متعلق بتكوينها و " كن " مجاز عن سرعة الإيجاد ، و ذهب الشيخ أبو الحسن الأشعري و من تابعه إلى أن وجود الأشياء متعلق بكلامه القديم الأزلي ،

و هذه الكلمة دالة عليه ، احتج مشايخ الحنفية الماتريدية بأنه لو كان كلمة "كن" خطاباً حقيقة ؛ فإما أن يكون خطاباً للمعدوم ، أو خطاباً للموجود بعد ما وجد لا جائز أن يكون خطاباً للمعدوم ؛ لأنه لا شيء فكيف يخاطب ، و لا أن يكون خطاباً للموجود ؛ لأنه قد كان ، فكيف يقال له : " كن " ، فوجب حمله على ما ذهب إليه مشايخ الحنفية الماتريدية ، و احتج مشايخ الأشاعرة بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُنَا لَشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ حيث دلت الآية الكريمة ظاهراً على أن وجود الأشياء بأمر " كن " ، فثبت القول بموجبها من غير اشتغال بتأويلها ، أقول بعد تمهيد تلك المقدمات و تقريب المطلوب إلى أفهام ذوي الأفهام : اختلفوا في أن صفات الأفعال و المراد صفات تدل على تأثير : كالخلق و الترزيق و الإحياء و الإماتة و التكوين ؛ هل هي قديمة أو حادثة ، ذهب مشايخ الحنفية إلى إثبات تلك الصفات ، و أنها قديمة بالذات مثل سائر الصفات الذاتية العلية ، و ذهب مشايخ الأشاعرة إلى أن صفات الأفعال التي يسميها الماتريدون من الحنفية بالتكوين على فصولها كلها حادثة . و لما أطبق الحنفية على إثبات مغائرتهم للقدرة ، و على إثبات أزليته ، و على كونه غير المكون ، أشار الإمام النسفي إلى الأول بقوله : و التكوين ، و إلى الثاني بقوله : أزلية ، و إلى الثالث بقوله : و هو غير المكون .

..... والتكوين و هو المعنى الذى يعبر عنه بالفعل و الخلق و التخليق والايجاد و الأحداث و الاختراع و نحو ذلك ، و يفسر باخراج المعدوم من العدم الى الوجود صفة لله لإطباق العقل و النقل على أنه خالق للعالم مكون له ، و امتناع اطلاق الاسم المشتق على الشيء من غير أن يكون مأخذ الاشتقاق وصفا له قائما به

معنى التكوين

فقال : ((و التكوين)) : قال الشارح قدس سره : ((و هو المعنى الذي يعبر عنه بالفعل والخلق والتخليق والإيجاد والإحداث والاختراع)) : و هذه الألفاظ تشترك في معنى و تتباين بمعانٍ ، والمشارك فيه كون الشيء موجودا من العدم ما لم يكن موجودا ، و التباين بمعانٍ ، فإن ما صدر من الباري سبحانه " أثر " ، فأصدره من حيث صدر عنه سبحانه و أقام به مبدأه " فعل " ، و من حيث أنه تأثير في الغير " خلق و تخليق " ، و بما أنه إعطاء لوجوده " ايجاد " ، و من حيث أنه إخراج له من العدم إلى الوجود بعد عدمه " إحداث " ، و من حيث أنه لم يسبق له مثال قبله " اختراع " ، و بما أنه جعل لا عن مادة " إبداع " ((و نحو ذلك)) : كالإبداع والإبقاء والإفناء وغيرها ، و يفسر بإخراج المعدوم من العدم إلى الوجود : يعني لا من حيث هو معدوم و إلا امتنع الخروج ((صفة لله)) :

احتجاج مشايخ الحنفية بأوجه

و احتج مشايخ الحنفية يعني لما ادعى الحنفية أن الصفات الراجعة إلى التكوين قديمة زائدة على الصفات المتقدمة ، ذكروا أوجها من الاستدلال :

الوجه الأول

منها : و هو عمدتهم في إثبات هذا المدعى ((لإطباق العقل)) : من العقلاء ، ((و النقل)) : من الأنبياء : بأنه أجمع الإجماع ((على أنه خالق للعالم مكون له)) : يعنى أنه سبحانه موجد للكائنات و منشئها و مكون لها ، ((و امتناع إطلاق الاسم المشتق على الشيء من غير أن يكون مأخذ الاشتقاق وصفا قائما به)) : ضرورة استحالة وجود الأثر بدون الصفة التي بها يحصل الأثر ، و أجاب عنه أبوعذبة في "الروضة البهية" وابن أبي الشريف في " شرح المسامرة " بأن استحالة وجود الأثر بدون الصفة إنما تكون في الصفات الحقيقية مثل العلم والقدرة والإرادة و غيرهما ، و لا نسلم أن التأثير والإيجاد من هذا القبيل : بل هو معنى يعقل من إضافة المؤثر إلى الأثر ، فلا يكون إلا فيما لا يزال و لا يفتقر إلا إلى صفة القدرة والإرادة لا إلى صفة زائدة عليهما .

الوجه الثاني

و منها : أن القدرة تتعلق بإيجاد الممكن أو عدمه على السواء فلا بد من صفة أخرى يكون بها إيجاده .

الوجه الثالث

و منها : أنه اشتمل نص الكتاب بأنه على كل شيء قدير ، و أنه خالق كل شيء مع أن المقدورات ليست موجودة في الأزل ، كما أن المخلوقات ليست موجودة فيه ، فتجوز التوصيف بأحدهما و إنكار التوصيف بالآخر تحكم قطعاً .

احتجاج مشايخ الأشاعرة والرد عليه

و احتج مشايخ الأشاعرة ، قال الحنفية : التكوين صفة قديمة أزلية

والمكون حادث ، قال الإمام في " أربعينه " : و محصله : القول بأن التكوين قديم أو محدث يستدعى تصور ماهيته ، فإن كان المراد به نفس مؤثرية القدرة في المقدور فهي صفة نسبية لا توجد إلا مع المنتسبين فيلزم من حدوث المكون حدوث التكوين . وإن كان المراد به صفة مؤثرة في وجود الأثر فهي عين القدرة ، أقول : و ردّ كلا الوجهين ظاهر . أما الأول فجوابه : فإن مشايخنا الحنفية لم يقصدوا بالتكوين ما يكون صفة نسبية تعقل مع المنتسبين ؛ بل أرادوا به أن مبدأ التكوين صفة قديمة أزلية مثل سائر الصفات الذاتية العلية ، و أما الثاني فجوابه : أن القدرة لو كانت مؤثرة في وجود الأثر لكان جميع المقدورات أثرا لها فيكون موجودا ، و هو باطل كما لا يخفى ، قال القاضي البيضاوي في " إشاراتة " و " طوالعه " : قال الحنفية : متعلق القدرة قد لا يوجد أصلا بخلاف متعلق التكوين ، والقدرة مؤثرة في إمكان الشيء ، والتكوين في وجوده ، أقول : إن الإمكان بالذات ، و لا تأثير للقدرة في كون المقدور ممكنا في نفسه ؛ لأن بالذات لا يكون بالغير فلم يبق إلا أن يكون تأثير القدرة في وجود المقدور تأثيرا على سبيل الصحة لا على سبيل الوجوب ، فلو أثبتنا صفة أخرى لله سبحانه مؤثرة في وجود المقدور لكان تأثيرها في المقدور إن كان على سبيل الصحة كان عين القدرة ؛ فيلزم اجتماع المثليين ، و يلزم اجتماع صفتين مستقلتين بالتأثير على المقدور الواحد ، و إن كان على سبيل الوجوب استحال أن لا يوجد ذلك المقدور من الله سبحانه فيكون الله سبحانه موجبا بالذات فاعلا بالاختيار و هو باطل باتفاق ، فالقدرة تنافي هذه الصحة ، فإن الموجب بالذات لا يكون قادرا مختارا . و الجواب عن الأول : لا يلزم من إثبات التكوين جمع المثليين ؛ لأن متعلق القدرة غير متعلق التكوين ، إن القدرة متعلقة بصحة وجود المقدور ، والتكوين بوجود المقدور و مؤثر فيه ، و نسبته إلى الفعل الحادث مثل نسبة الإرادة إلى المراد والقدرة والعلم ، لا

يقتضيان كون المقدور والمعلوم موجودين بهما ، والتكوين يقتضيه . و الجواب عن الثاني : ، إن كانت تلك الصفة مؤثرة على سبيل الوجوب كان الله سبحانه موجبا ، ليس بشيء : لأن ذلك الوجوب لا حق لا سابق ، يعني إذا أراد الله سبحانه خلق الشيء من مقدوراته كان حصول ذلك الشيء واجبا لا بمعنى انه كان واجبا قبل ان يخلقه .

و تحقيقه : أن تعلق مبدأ التكوين ليس إلا على سبيل الجواز ، واختياره سبحانه بمعنى أنه سبحانه متى شاء خلق و متى شاء لم يخلق ، و تأثيره على سبيل الوجوب بمعنى أنه متى تعلق بوجود شيء وجب وجوده و إلا لجاز تخلفه عن الوجود ، فيوجب العجز غاية ما في الباب ما ادعى الحنفية : إن القدرة مؤثرة في إمكان الشيء فهو خطأ ؛ بل الصواب أن القدرة متعلقة بصحة وجود المقدور ، و التكوين متعلقة بوجود المقدور .

..... أزلية بوجوه : الأول : أنه يمتنع قيام الحوادث بذاته تعالى لما مر ، الثاني : أنه وصف ذاته في كلامه الأزلي بأنه الخالق ، فلو لم يكن في الأزل خالقا لزم الكذب أو العدول إلى المجاز ، أي الخالق فيما يستقبل أو القادر على الخلق من غير تعذر الحقيقة ، على أنه لو جاز إطلاق الخالق عليه بمعنى القادر على الخلق لجاز إطلاق كل ما يقدر هو عليه من الأعراض عليه ، الثالث : أنه لو كان حادثا فإما بتكوين آخر فيلزم التسلسل و هو محال ويلزم منه استحالة تكون العالم

التكوين صفة أزلية بوجوه

((أزلية)) : يعني التكوين المعبر عنه بالتخليق والايجاد والفعل والإحداث و نحو ذلك صفة نفسية قديمة قائمة بذاته ((بوجوه)) : يعني استدلوا على قدمها بأمور :

الوجه الأول

((الأول)) : يعني أولها ، ((أنه يمتنع قيام الحوادث بذاته)) : يعني لا بد أن تكون صفة التكوين أزلية لامتناع قيام الحوادث بذاته ((لما مر)) في الرد على الكرامية أخبت الطوائف .

الوجه الثاني

((الثاني)) : يعني و ثانيها - ((أنه وصف ذاته)) : يعني في الأزل - ((في

كلامه الأزل بأنه خالق ((قال الله سبحانه : ﴿ خالق كل شيء ﴾ ، ((فلو لم يكن في الأزل خالقا)) : رد القولين من قبل الحنفية ((لزم الكذب)) : وهو ممتنع بأنه نقص فيه سبحانه ، وهو محال ، وبأنه لو جاز لكان كذبه قديما لعدم قيام الحادث به ، فامتنع عليه الصدق لأن وجود الضد يرفع ضده ، ومن المتقرر " ما ثبت قدمه امتنع عدمه " ، فامتنع عدم الكذب ، ويلزم منه امتناع وجود الصدق وهو محال باتفاق الناس ، ((أو العدول إلى المجاز)) : إن لم يجر الخالق على حقيقته و ماهيته ((الخالق فيما يستقبل)) : هذا مجاز أول . ((أو القادر على الخلق)) : هذا مجاز ثان ، وهذا تأويل الكرامية قال في " الكفاية " : وليس يصح تأويل الكرامية أن الله تعالى يسمى في الأزل خالقا بمعنى الخالق ، ومعنى الخالقية قدرته على الخلق . ((من غير تعذر الحقيقة)) : يعني لزم العدول إلى المجاز من غير تعذر الحقيقة ، وههنا لم يتعذر الحقيقة . ((على)) : علاوة على الدليل لاستلزامه محالا ضروريا ((أنه لوجاز إطلاق الخالق عليه بمعنى القادر على الخلق ، لجاز إطلاق كل ما يقدر هو عليه من الأعراض)) : يعني العدول إلى المجاز مع تيسر الحقيقة يستلزم إطلاق كل صفة مشتقة يقدر على مأخذ الاشتقاق مثل الأسود والأبيض بمعنى القادر على السواد والبياض ، وذلك لم يقل به عاقل فضلا عن فاضل .

الوجه الثالث

((الثالث)) : يعني ثالثها ((أنه)) : يعني أن التكوين ((لو كان حادثا فإما بتكوين آخر)) : يعني أن يكون حدوثه بتكوين آخر ((فيلزم التسلسل)) : في التكوينات ، وهي أمور واقعية عند الحنفية ، ((وهو محال)) بالبراهين العقلية القاطعة ((ويلزم منه استحالة تكون العالم)) : لأن تكون المصنوعات يستلزم التسلسل ، لأن وجودها صار موقوفا على تكوينات غير متناهية ووجودها محال ، ومن المتقرر أن ما يستلزم للمحال فهو محال ، وما قيل : من أن تكوين التكوين عين التكوين بمعنى أنه ليس أمرا آخر زائدا عليه في الخارج ، ظاهر البطلان .

..... مع أنه مشاهد ، و أما بدونه فيستغني
 الحادث عن الحدث و الأحداث و فيه تعطيل الصانع ،
 الرابع : أنه لو حدث لحدث إما في ذاته فيصير محلا
 للحوادث أو في غيره كما ذهب إليه أبو الهذيل من أن
 تكوين كل جسم قائم به فيكون كل جسم خالقا و مكونا
 لنفسه ، و لا خفاء في استحالتة . و مبنى هذه الأدلة على
 أن تكوين صفة حقيقة كالعلم و القدرة ، و المحققون من
 المتكلمين على أنه من الإضافات و الاعتبارات العقلية مثل
 كون الصانع تعالى و تقدس قبل كل شيء و معه و بعده و
 المذكور بالسنننا و معبودا لنا و مميتا و محييا و نحو ذلك.
 و الحاصل في الأزل هو مبدء التخليق و الترزيق والإماتة و
 الإحياء و غير ذلك و لا دليل على كونه صفة أخرى سوى
 القدرة و الإرادة ، فإن القدرة و إن كانت نسبتها إلى وجود
 المكوّن و عدمه على السواء لكن مع انضمام الإرادة
 يتخصص أحد الجانبين . و لما استدل القائلون بحدوث
 التكوين بأنه لا يتصور بدون المكون كالضرب بدون
 المضروب ، فلو كان قديما لزم قدم المكونات و هو محال
 أشار إلى الجواب بقوله : و هو أي التكوين تكوينه للعالم و
 لكل جزء من أجزائه لا في الأزل بل لوقت وجوده على
 حسب علمه و إرادته ، فالتكوين باق أزلا و أبدا ، و المكون
 حادث بحدوث التعلق كما في العلم و القدرة و غيرهما من

الصفات القديمة التي لا يلزم من قدمها قدم متعلقاتها
لكون تعلقاتها حادثة

((مع أنه مشاهد)) : محسوس بين العينين ، ((وإما بدونه)) : يعني أن يكون حدوثه بدون تكوين آخر ((فيستغني الحادث)) : يعني التكوين الأول ((عن المحدث)) و هو القادر والفاعل المختار عند أهل الحق و عند أهل العقل ((والإحداث)) : يعني الخروج من العدم إلى الوجود ((وفيه تعطيل الصانع)) : إذ بضرورة العقل إذا جاز حدوث حادث واحد بدون التكوين جاز حدوث جميع الحادثات ؛ إذ لا قائل بالفصل وفيه تعطيل لا يخفي .

الوجه الرابع

((الرابع)) : يعني رابعها ((أنه لو حدث لحدث)) : يعني أن التكوين لو حدث فحدوثه لا يخلو ((إما في ذاته)) : يعني في ذات الباري سبحانه ، فيصير ((محلاً للحوادث)) : وقد أبطلناه بمزات ((أو في غيره)) : في غير ذات الباري سبحانه ((كما ذهب إليه أبو الهذيل)) : قائد الطائفة الهذيلية حمدان بن أبي الهذيل العلاف شيخ المعتزلة و مقرر الطريقة ، أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل بن عطاء ((من أن تكوين كل جسم قائم به فيكون كل جسم خالقاً و مكوناً لنفسه)) : لأن الخالق من قام به الخلق والمكون من قام به التكوين ؛ على أن هذا الكلام لا يجري في الأعراض ، وذلك لأن قيام الشيء بالعرض ممنوع ((و لا خفاء في استحالته)) : يعني واستحالته ظاهرة .

الوجه الخامس

و منها : أن التكوين صفة مدح ، فلو لم يكن خالقاً قبل أن يخلق

لاكتسب بوجودهم صفة مدح مستكملاً بغيره ، و يتعالى الله عن ذلك ، و لبعض الناس على هذه الوجوه أسئلة سوفسطائية ، فتأمل ولا تغفل .

الرد على هذه الأدلة القاطعة

لما اشتهر بين الأشاعرة أن إثبات التكوين صفة قديمة قول محدث أحدثه أبو منصور و غيره ، متأخروا الحنفية ، و لا يذهب إليه قد ماذهب من العراقيين و غيرهم ، و ليس في كلام المتقدمين منهم ذلك ، و كان الشارح قدس سره أشعري الأصول و حنفي الفروع ، فقال في الرد على هذه الأدلة القاطعة : ((و مبنى هذه الأدلة على أن التكوين صفة حقيقية)) : ثابتة للباري سبحانه لا بالقياس إلى الغير ((كالعلم والقدرة)) : يعني مبنى هذه الأدلة الدالة على أن التكوين صفة قديمة أزلية حقيقية قائمة بذات الله سبحانه على ما ذهب إليه مشايخ الحنفية ، وأما إذا كان التكوين عبارة عن الإضافات والاعتبارات على ما ذهب إليه مشايخ الأشاعرة ؛ فلا نسلم هذه الأدلة ، لأنه حينئذ لا وجود له في الواقع في الخارج ، بل هو اعتبار عقلي و معنى يعقل من إضافة المؤثر إلى الأثر ، فلا يحتاج إلى هذه الأدلة ، و على فرض وجوده الغيرالخاتم بذات الله سبحانه فلا يكون صفة له سبحانه .

مذهب المحققين من المتكلمين من مشايخ الأشاعرة أن التكوين

من الإضافات والاعتبارات العقلية وأنه عين القدرة والارادة

((والمحققون من المتكلمين)) : من مشايخ الأشاعرة ((على أنه من الإضافات والاعتبارات العقلية)) : و معنى الاعتبار في عرف العقل : النظر في بعض الأشياء ليدرك به شيء آخر من جنسه ((مثل كون الصانع تعالى قبل كل شيء و معه و بعده)) : و من المعلوم أن اتصاف الله سبحانه بهذه الأشياء

بالنظر إلى شيء آخر ((و مذكوراً بالسنتنا و معبوداً لنا و مميتاً و محيياً و نحو ذلك)) : من الإضافات والتكوينات الخاصة : ((والحاصل في الأزل هو مبدء التخليق)) : و هو قدرته سبحانه عند مشايخ الأشاعرة : ((والترزيق والإماتة والإحياء و غير ذلك)) : من الإعزاز والإذلال والإبقاء والإفناء يعني إن الثابت له والقائم بذاته العلي في درجة الأزل منشأ هذه الأشياء و مبدأها و هو القدرة من حيث تضمنها لصلوح التأثير ، ((ولا دليل على كونه)) : يعني التكوين ((صفة أخرى سوى القدرة والإرادة)) : يعني التكوين عين القدرة والأرادة .

الرد على مذهب المحققين وأن التكوين ليس عين القدرة و

الإرادة ولا مجموعهما بل غيرهما

و أنت خير أن ما يكون وصفا له سبحانه في إيجاد المكونات مبدء التكوين ، فهو صفة مؤثرة في وجود الأثر والقدرة صفة له بمعنى صحة صدور الأثر و هو أخص مطلقاً من القدرة متساوية النسبة إلى جميع المقدورات ، و مبدء التكوين خاصة بما يدخل منها في الوجود والقدرة ، والقدرة لا تقتضي أن يكون المقدور موجوداً ، و مبدء التكوين يقتضيه ، فبعد هذه المقدمات إذا راجعت إلى وجدانك و انصافك علمت بأول توجه العقل أن التكوين ليس عين القدرة و لا عين الإرادة و لا مجموعهما ، فافهم ، و لا تكن من الغافلين ، بل كن من العاقلين .

الاعتراض والجواب

ولما كان لقائل أن يقول : إن القدرة متساوية إلى وجود المقدرات وعدمها : فكيف تكون مبدء الإيجاد والإحداث، دفعه بقوله :
 ((فإن القدرة و إن كانت نسبتها إلى وجود المكوّن و عدمه على السواء لكن مع انضمام الإرادة يتخصص أحدهما)) : من الوجود والعدم .

استدلال مشائخ الأشاعرة القائلين بحدوث التكوين

ولما استدل القائلون يعني مشائخ الأشاعرة ((بحدوث التكوين بأنه)) يعني التكوين ((لا يتصور بدون المكون)) : بناءً على أن التكوين إضافة ، إذ هي التي يستحيل وجودها بدون المضاف ((كالضرب بدون المضروب)) : يعني كالضرب يستحيل وجوده بدون المضروب ، و حاصله : لا وجود لتكوين بدون المكون ؛ كما لا وجود للضرب بدون المضروب ، ((فلو كان)) : يعني التكوين ، ((قديماً لزم قدم المكونات)) : يعني أن التكوين لو كان أزلياً لزم أزلية المكونات ، ((وهو محال)) : ضرورة امتناع التأثير بالفعل بدون الأثر .

الإشارة إلى الجواب

أشار إلى الجواب بقوله : ((وهو أي التكوين تكوينه)) : يعني تخليق الباري سبحانه ((للعالم)) : يعني أن التكوين المعبر عنه بالتخليق والإيجاد والإحداث والفعل و نحو ذلك صفة ذاتية نفسية قديمة أزلية ، يكون الله سبحانه بها الأشياء في وقت وجودها ، ((ولكل جزئ من أجزائه لا في الأزل ؛ بل لوقت وجوده على حسب علمه وإرادته)) : يعني إن أجاد الله سبحانه لكل جزء من أجزاء العالم إنما هو في الوقت المقدر لابتداء وجود ذلك الجزء في علمه سبحانه على الوجه المخصوص الذي تعلقت به الإرادة ، ((فالتكوين باق)) : بنفسه و ذاته ((أزلاً و أبداً والمكون حادث بحدوث التعلق)) : فالتكوين قديم والمكون و تعلقه بالمكون حادث ((كما في العلم والقدرة و غيرهما من الصفات القديمة)) : كالسمع والبصر والإرادة ((التي لا يلزم من قدمها)) : يعني من قدم هذه الصفات ((قدم متعلقاتها)) : يعني من

المعلومات الحادثة و المقدورات و المبصرات و المسموعات و غيرها ((لكون تعلقاتها)) : يعني تعلقات هذه الصفات القديمة ((حادثة)) : فتعلق وجود كل شيء وقت وجوده بتخليقه و تكوينه القديم .

مراد المشائخ الحنفية بالتكوين

و قد سبق منا انفاً أن مشايخنا الحنفية لم يقصدوا بالتكوين ما تكون صفة إضافية نسبية مثل الضرب : حتى يلزم من حدوث المكون حدوث التكوين : بل أرادوا به أن مبدء التكوين صفة أزلية قديمة ، في " التأويلات " لإمامنا علم الهدى أبي منصور الماتريدي : إذا أطلق الوصف لله سبحانه بما يوصف به من الفعل والعلم و نحوه يلزم الوصف به في الأزل ، فيوصف به لمعنى قائم به بذاته قبل وجود الخلق ، و في " تعديل العلوم " للصدر العلامة : صفات الأفعال ليست نفس الأفعال ، بل منشأها ، فالصفات قديمة والأفعال حادثة ، و في " تبصرة الأدلة " لأبي المعين النسفي : إن الخالق وصف له إجماعاً ، فلا بد من وجود معنى يكون به خالقاً ، و يتصف كسائر الصفات القدسية . فبعد هذه العبارات اندفع إشكالات أوردت مشايخ الأشاعرة . و عدت من الصعاب .

اشكال الامام الفخر

منها : ما قال الإمام الفخر : إن عنيتم به نفس المؤثرية فهو صفة نسبية ، والنسبة لا توجد إلا بعد المنتسبين ، فيلزم من حدوث المكون حدوث التكوين، و إن عنيتم به صفة مؤثرة في صحة وجود الأثر ، فهي عين القدرة .

اشكال القاضي العضد والقاضي البيضاوي

و منها : ما قال القاضي العضد في " المواقف " ، والقاضي البيضاوي

في "الإشارات والطوابع": إن القدرة لا تأثير لها في كون المقدور في نفسه ممكن الوجود ؛ لأن إمكان الممكن بالذات و ما يكون بالذات لا يكون بالغير ؛ بل القدرة صفة مؤثرة في وجود المقدور ، والتكوين : هو تعلق القدرة بالمقدور حال إرادة إيجاده سبحانه وهو حادث .

اشكال صاحب المقاصد

و منها : ما قال صاحب "المقاصد": إنه لا يعقل من التكوين إلا الإحداث وإخراج المعدوم إلى الوجود و لا خفاء في أنه إضافة يعتبرها العقل من نسبة المؤثر إلى الأثر فلا يكون موجوداً عينياً ثابتاً في الأزل .

الخلاصة

و التلخيص : أن مبدء الإيجاد إنما هو صفة القدرة و الإرادة عند مشايخ الأشاعرة ، و لا تحقق لصفة نفسية هي التكوين عندهم ، و مبدء الإيجاد عند مشايخ الحنفية محقق الماتريدية هي صفة التكوين الأزلية و الإرادة ، و الفرق دقيق ، فافهم .

..... وهذا تحقيق ما يقال : إن وجود العالم إن لم يتعلق بذات الله تعالى و صفة من صفاته لزم تعطيل الصانع و استغناء الحوادث عن الموجد ، و هو محال ، و إن تعلق فيما أن يستلزم ذلك قدم ما يتعلق وجوده به يلزم قدم العالم و هو باطل أولا فليكن التكوين أيضا قديما مع حدوث المكون المتعلق به ، و ما يقال من أن القول بتعلق وجود المكون بالتكوين قول بحدوثه ؛ إذ القديم ما لا يتعلق وجوده بالغير و الحادث ما يتعلق به ففيه نظر، لأن هذا معنى القديم والحادث بالذات على ما تقول به الفلاسفة . و أما عند المتكلمين فالحادث ما لوجوده بداية أي يكون مسبوقا بالعدم و القديم بخلافه ، و مجرد تعلق وجوده بالغير لا يستلزم الحدوث بهذا المعنى لجواز أن يكون محتاجا إلى الغير صادرا عنه دائما بدوامه كما ذهب إليه الفلاسفة فيما ادعوا قدمه من الممكنات كالهيولى مثلا

تقرير المصنف تحقيق قول الشيخ حافظ الدين صاحب العمدة

((وهذا)) : الذي قرره المصنف رحمه الله في قدم التكوين مع حدوث المكونات ((تحقيق ما يقال)) : القائل (١) □ الشيخ حافظ الدين صاحب " العمدة " ((إن وجود العالم إن لم يتعلق بذات الله تعالى و صفة من صفاته لزم تعطيل الصانع)) : يعني نقول لهم : هل تعلق وجود العالم بذاته أو بصفة من صفاته أم لا ؟ ، فإن قالوا لا : فقد عطلوه ((واستغناء الحوادث عن الموجد)) : هذه المقدمة أوردها الشارح من قبل نفسه ((و هو محال)) : إذ لا معنى لكونه سبحانه صانعا للعالم إلا تعلقه به أو

(١) و صاحب البداية و صاحب الأصول الصابوني

بصفة من صفاته ولا طريق إلى العلم بوجوده بالدليل إلا ذلك ((وإن تعلق)) : وإن قالوا : نعم ، تعلق وجود العالم بذاته أو بصفة من صفاته ، ((فيما أن يستلزم ذلك قدم يتعلق وجوده به فيلزم قدم العالم و هو باطل)) : لأنه ثبت بالبرهان أن العالم بجميع أجزائه حادث ((أولا)) : يعني قلنا : هل يقتضي ذلك أزلية العالم أم لا ، فإن قالوا : نعم ؛ فقد كفروا ، وإن قالوا : لا ؛ بطلت شبهتهم ، ((فليكن التكوين أيضاً)) : مثل ذات البارئ سبحانه ((قديما مع حدوث المكون المتعلق به)) : يعني بالتكوين .

الشبهة من الشيخ حافظ الدين

((وما يقال)) : القائل الشيخ حافظ الدين إشارة إلى دفع شبهتهم في حدوث التكوين ، و هو أن يقال : إن قدم التكوين يقتضي قدم المكون ((من أن القول بتعلق وجود المكون بالتكوين قول بحدوثه إذ القديم ما لا يتعلق وجوده بالغير ، والحادث ما يتعلق به)) : يعني ما يتعلق تكونه بالتكوين حادث ضرورة أن المحدث ما يتعلق وجوده بغيره ، والقديم ما لا يتعلق وجوده بغيره ، والعجب كل العجب ! أن قوماً يدعون البراعة في التوحيد والصفات ، والتبحر في معرفة الدلائل ، يزعمون أن القول بقدم التكوين يؤدي إلى القول بقدم المكونات مع علمهم أن ماتعلق وجوده بسبب من الأسباب فهو الحادث ؛ لأن القديم هو المستغني في وجوده عن غيره ، فما لم يستغن عن غيره وتعلق وجوده به كان محدثا ضرورة ، والمكون وجوده بالتكوين فكيف يكون قديماً .

دفع شبهة الشيخ حافظ الدين

((ففيه نظر لان هذا)) : يعني الذي ذكره الشيخ حافظ الدين ((معنى القديم والحادث بالذات)) : يعني من معنى القديم والحادث ، إنما هو معنى القديم والحادث بالذات . ((على ما تقول به الفلاسفة)) : الفلاسفة قائلون بقدم العالم بالزمان و حدوثه بالذات ، فهو وإن كان لا ابتداء لوجوده عندهم إلا أنه حادث بالذات ؛ لأن وجوده متعلق بغيره و مستند إليه سبحانه بالإيجاب ، و حاصله : أن هذا

الجواب لا يكون على طريق أهل السنة ؛ بل يكون على طريق الفلاسفة ؛ لأن القديم والحادث بالذات إنما يكون عند الفلاسفة - و أما عند أهل السنة مما سوى الله سبحانه حادث بالزمان ، أي المسبوق وجوده بالعدم ، و لا يلزم من تعلق وجود المكون بالتكوين الحادث بهذا المعنى ؛ بل يلزم منه الحادث الذاتي هو عبارة عن تعلق الوجود بالغير - ((و أما عند المتكلمين فالحادث)) : يعني الحادث بالزمان ((ما لوجوده بداية)) : قال الشارح قدس سره في تفسيره : ((أن يكون مسبقا بالعدم والقديم بخلافه)) : يعني لا بداية لوجوده و لا يكون مسبقا بالعدم ((و مجرد تعلق وجوده)) : يعني وجود المكون ((بالغير)) : يعني بالتكوين أو بسبب من الأسباب غيره ((لا يستلزم الحادث)) : يعني حدوث المكون ((بهذا المعنى)) : يعني ما يكون مسبقا بالعدم مع أن المراد بالحادث في المكونات الحادث بهذا المعنى ؛ ((لجواز أن يكون محتاجا إلى الغير صادرا عنه دائما بدوامه ، كما ذهب إليه الفلاسفة فيما ادعوا قدمه من الممكنات كالهوى مثلا)

النظر في النظر

أقول : ففي نظره نظر ، و ذلك لأن المقصود بيان أن المعروف من جهة الشريعة في صحة الإيمان والعقيدة من معاني القدم والحادث ، هو هذا القدر سواء سماه الفلاسفة والمتكلمون أو غيرهم في اصطلاحهم بالحادث الذاتي أو بالحادث الزماني أو بغير ذلك ، و لا حاجة لنا إلى استلزامه المسبوقية بالعدم ؛ لأن الشرع ما كلفنا باعتقادها و لم يحكم بوجوبها ، والواضع للشرائع ليس إلا هو العزيز الجبار دون المتكلمين و غيرهم من النظائر . فإن زعموا أنهم أخذوا ذلك من الشرع طولبوا بإقامة حجة شرعية بتلاوة آية أو برواية سنة ، و لم يجدوا لذلك سبيلا ، و إن كان بعضهم لبعض ظهيرا .

..... نعم ! إذا أثبتنا صدور العالم عن الصانع
 بالاختيار دون الإيجاب بدليل لا يتوقف على حدوث العالم ، كان
 القول بتعلق وجوده بتكوين الله تعالى قولاً بحدوثه . و من ههنا
 يقال : إن التنصيص على كل جزء من اجزاء العالم إشارة إلى الرد
 على من زعم قدم بعض الأجزاء كالهيوولى ؛ و إلا فهم إنما يقولون
 بقدمها بمعنى عدم المسبوقية بالعدم لا بمعنى عدم تكونه بالغير ؛
 و الحاصل : إنا لا نسلم أنه لا يتصور التكوين بدون وجود المكون
 و أن وزانه معه وزان الضرب مع المضروب ، فإن الضرب صفة
 إضافية لا يتصور بدون المضافين أعنى الضارب و المضروب و
 التكوين صفة حقيقة

توجيه قول الشيخ حافظ الدين

((نعم)) توجيهه لذلك القول ((إذا أثبتنا صدور العالم عن الصانع
 بالاختيار)) : يعني أن القول بتعلق وجود المكون بالتكوين هو القول بالحدوث
 الزماني ، إذا كان صدور الكائنات عن الواجب سبحانه بالقصد والاختيار ، و إليه
 ذهب أهل السنة ((دون الإيجاب)) : يعني من غير قصد واختيار ، و إليه ذهب
 الفلاسفة ، والفاعل بالاختيار هو الذي إن شاء فعل و إن شاء ترك ، والفاعل
 بالإيجاب هو الذي كان صدور الفعل عنه واجبا ، و لم يكن مسبوقا بالقصد
 والاختيار ((بدليل لا يتوقف على حدوث العالم)) : لأن حدوث الكائنات عند الجماعة
 يتوقف على أن يكون الصانع سبحانه فاعلا مختارا ، فهذا التوقف على الدليل الذي
 يتوقف على حدوث الكائنات وجب الدور ((كان القول بتعلق وجوده)) : يعني وجود
 المكون ((بتكوين الله سبحانه قولاً بحدوثه)) : لأن ما يصدر بالاختيار حادث ؛ إذ

بضرورة العقل أن الممكن إذا كان مفتقرا إلى موجد مختار ، وجب أن يكون حادثا زمانيا مسبقا بالعدم ؛ و ذلك لأنه لا يكون موجودا حال إرادة الصانع إحداثه و إيجاداه ، فلا محالة يكون عند الإرادة معدوما .

الرد على الفلاسفة

((و من مهنا)) : يعني و من أجل أن المراد بالحادث ما يكون مسبقا بالعدم و مخرجا منعدم إلى الوجود ((يقال : إن التنصيص)) من الإمام النسفي ((على كل جزء من أجزاء العالم)) : مع ملاحظة قوله بوقت وجوده ((إشارة إلى الرد على من زعم قدم بعض أجزاء كاليهوى)) ، و النفوس ، و العقول ، و الصور الجسمية والنوعية و غيرها من الأشياء ((و إلا)) : يعني و إن لم يكن المقصود بالحادث هذا المعنى ((فهم)) : يعني الفلاسفة ((إنما يقولون بقدمها)) : ، يعني بقدم الهوى و غيرها ((بمعنى عدم المسبوقية بالعدم)) يعني القدم بالزمان لا بالذات ((لا بمعنى عدم تكونه بالغير)) : يعني لا بمعنى أنه لا يحتاج إلى الغير هذا لا يقوله إنسان ، فلم يتم الرد على الفلاسفة ؛ لأن كل جزء من أجزاء الكائنات عندهم أيضا حادث ذاتا .

حاصل الجواب في الرد على القائلين بحدوث التكوين

((والحاصل)) : يعني حاصل الجواب في الرد على القائلين بحدوث التكوين ((إنا لا نسلم أنه لا يتصور التكوين)) : يعني لا يتحقق وجود التكوين ((بدون وجود المكون)) : يعني قبله عند عدمه السابق ((وإن وزانه معه وزان الضرب مع المضروب)) : و أيضا لا نسلم أن حال التكوين مع المكون حال الضرب مع المضروب ((فإن الضرب صفة إضافية)) : يعني ذات إضافة لا أنه نفس الإضافة ؛ لأن الضرب اسم لما قام بالضارب مأخوذا مع الإضافة إليه و إلى المضروب ((لا يتصور بدون المضافين)) : أعني الضارب والمضروب ((والتكوين صفة حقيقة)) : فليس صفة ذات إضافة و ليست إضافة ملحوظة فيه أصلا و رأسا ، لأنه يقوم بذاته مع عزل اللحظ عن تعلقه بالمكون

..... هي مبدأ الإضافة التي هي إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود لا عينها ، حتى لو كانت عينها على ما وقع في عبارة المشايخ لكان القول بتحقيقه بدون المكون مكابرة و إنكارا للضروري ، فلا يندفع بما يقال من أن الضرب عرض مستحيل البقاء فلا بد لتعلقه بالمفعول و وصول الألم إليه من وجود المفعول معه ؛ إذ لو تأخر لانعدم هو ؛ بخلاف فعل الباري تعالى فإنه أزلي واجب الدوام يبقى إلى وقت وجود المفعول و هو غير المكون عندنا ؛ لأن الفعل يغير المفعول بالضرورة كالضرب مع المضروب و الأكل مع المأكول

((هي مبدأ الإضافة)) :التي هي إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود ((لا عينها)): يعني لآعين الإضافة التي هي وزان الضرب ، أقول : التكوين له معنيان : أحدهما الصفة النفسية الذاتية التي هي مبدأ الإيجاد والإحداث والاختراع والإبداع بالفعل ، و ثانيهما التكوين بالفعل : هو عبارة عن تعلق الصفة النفسية بالمكون ، فهو نسبة بين المكون والمكون كالضرب والذي تقول محقق الماتريدية بقدمه إنما هو الصفة دون التعلق ، والذي لا بد من تحقيقه في المكون إنما هي النسبة و التعلق و التكوين بالفعل ((حتى لو كانت عينها)) : و أما على أن التكوين هو لنفس تلك الإضافة ((على ما وقع في عبارة المشايخ)) : صاحب " التبصرة " و صاحب " الإرشاد " ، تسامح بعض مشايخنا في تفسيره بإخراج المعدوم من العدم إلى الوجود ، ((لكان القول بتحقيقه بدون المكون مكابرة)) : يعني جدالا بلا غاية ((و إنكارا للضروري)) يعني بل مصادمة للبداية ؛ لأن وجود الإضافة نفسها من غير المضافين محال ببداية ، فتدبر . ((فلا يندفع بما يقال)) : يعني فالاعتراض وارد و لا يقوم في وجهه ما يقولونه من أن ((الضرب عرض مستحيل البقاء فلا بد لتعلقه بالمفعول و وصول الألم إليه من وجود المفعول معه ؛ إذ لو تأخر

لأنعدم هو)) : لأن العرض لا يبقى زمانين عند شيخ الأشاعرة ((بخلاف فعل الباري تعالى فإنه أزلى واجب الدوام يبقى إلى وقت وجود المفعول)) : و حاصله : أن السؤال وارد ولا يقوم في وجهه ما يقولونه من أن فعل الباري ليس كأفعال غيره ، لا بدلها من وجود المفعول ؛ لأنها أعراض مستحيلة البقاء ، و فعل الله سبحانه قديم واجب البقاء إلى وقت وجود المفعول ، لأنه مكابرة ولا يخلو عن تحكم ، أقول : الاختلاف و أدلة الجانبين واقعة قبل تنقيح ما هو أصل الاختلاف ، فأدلة الماتريدية مبنية على أن التكوين صفة حقيقية ، و أدلة الأشعرية قائمة على أنه إضافة محضة و أمر اعتباري مأخوذ من نسبة الأثر إلى المؤثر ، وليس ههنا مبدأ عيني و صفة منضمة إلى المؤثر .

التكوين غير المكون عندنا وفيه رد على مشايخ الأشاعرة

و لما قال مشايخ الأشاعرة : إن التكوين عين المكون ، فقال في الرد عليهم ((و هو)) : يعني التكوين ((غير المكون عندنا)) : يعني مشايخ الحنفية .

احتجاج مشايخ الأشاعرة والجواب عنه

واحتج مشايخ الأشاعرة بقوله سبحانه : ﴿ هذا خلق الله فأروني ما ذا خلق الذين من دونه ﴾ ، و بقوله : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ﴾ ، والجواب عنه أن إطلاق الحدث الساذج على المفعول شائع ذائع ، فلا يتم التقريب .

احتجاج مشايخ الحنفية بوجوه عقلية ، الوجه الأول

و احتج مشايخ الحنفية بوجوه عقلية ، أحدها : ما أشار إليه بقوله : ((لأن الفعل يغائر المفعول بالضرورة)) : يعني إن التكوين فعل والفعل يغائر المفعول ، قال بعض الأفاضل : وفيه نظر لأن التكوين ليس نفس الفعل بل مبدأه - أقول : وفي نظره نظر ، وذلك لأن المطلوبة بالفعل ما به الفعل وهو مبدأه ، وهو منفصل عن المفعول ، و أيضًا قد سبق بمراتٍ عديدة أن المراد به المبدأ ((كالضرب مع المضروب والأكل مع المأكول)) .

..... ولأنه لو كان نفس لا مكون لزم أن يكون المكون مكونا مخلوقا بنفسه ضرورة أنه مكوّن بالتكوين الذي هو عينه ، فيكون قديما مستغنيا عن الصانع و هو محال ، و ان لا يكون للخالق تعلق بالعام سوى أنه اقدم منه قادر عليه مع غير صنع و تأثير فيه ضرورة تكونه بنفسه ؛ وهذا لا يوجب كونه خالقا و العالم مخلوقا ،

الوجه الثاني

و ثانيها : ((و لأنه لو كان)) : يعني التكوين ((نفس المكون لزم أن يكون المكون مكونا مخلوقا بنفسه)) : فنكون إذن نحن موجودين بأنفسنا ، أو بحكم الاتفاق و إذا كان وجودنا بأنفسنا ، أو بحكم الاتفاق فلا يصح وجودنا عن عدم ، و قد ثبت بالبرهان القاطع وجودنا عن عدم ((ضرورة أنه)) : يعني المكون ((مكوّن بالتكوين الذي هو عينه فيكون قديما مستغنيا عن الصانع)) : فحينئذ يكون المكون واجب الوجود لا ممكن الوجود ((وهو محال)) : وهذا محال في حق الحق ؛ لأنه يستلزم قيام التكوين الذي هو العالم به سبحانه ، و ذلك محال ؛ بل يستلزم أن يكون الباري سبحانه متصفا بالأعراض ؛ لأنها عين تكوينها القائم به سبحانه ، و ذلك محال .

الوجه الثالث

و ثالثها : ((و أن لا يكون للخالق تعلق بالعالم)) : و ذلك من حيث أن تكونه إنما هو بنفسه ((سوى أنه أقدم منه)) : من حيث أنه واجب قديم ((قادر عليه)) : لا أنه خالق له بالفعل ، ((مع غير صنع و تأثير فيه ضرورة تكونه بنفسه و هذا)) : يعني عدم تعلق الخالق بالمخلوق ((لا يوجب كونه خالقا و العالم مخلوقا)) : و ذلك لعدم احتياجه في وجوده إليه سبحانه .

..... فلا يصح القول بأنه خالق للعالم و صانعه ، هذا خلف ؛
 و ان لا يكون الله تعالى مكونا للأشياء ضرورة أنه لا معنى للمكون
 الا من قام به التكوين ، و التكوين إذا كان عين المكون لا يكون
 قائما لذات الله تعالى ، و ان يصح القول بان خالق سواد هذا
 الحجر أسود و هذا الحجر خالق و للسواد ؛ إذ لا معنى للخالق و
 الأسود إلا من قام به الخلق و السواد ، و هما واحد ، فمحلها
 واحد ؛ و هذا كله تنبيه على كون الحكم بتغاير الفعل والمفعول
 ضروريا ، لكنه ينبغي للعاقل أن يتأمل في أمثال هذه المباحث و
 لا ينسب إلى الراسخين من علماء أصول الدين ما تكون
 استحالاته بديهية ظاهرة على من له ادنى تميز ؛ بل يطلب
 لكلامه محملاً يصلح محلاً لنزاع العلماء و خلاف العقلاء ، فإن
 من قال التكوين عين المكون أراد أن الفاعل إذا فعل شيئاً
 فليس مهنا إلا الفاعل و المفعول ، و أما المعنى الذي يعبر عنه
 بالتكوين و الإيجاد و نحو ذلك

((فلا يصح القول بأنه خالق للعالم و صانعه هذا خلف)) : يعني عدم
 صحة القول بأنه خالق للعالم و صانعه ؛ لأن الثابت بالأدلة السمعية
 والبراهين العقلية أن الله سبحانه خالق ، والعالم مخلوق .

الوجه الرابع

و رابعها : ((أن لا يكون الله تعالى مكونا للأشياء ضرورة أنه لا معنى
 للمكون)) : بحسب العرف والعربية إلا من قام به التكوين ((والتكوين إذا كان

عين المكون لا يكون قائما بذات الله سبحانه ((: و ذلك لأن المكون غير قائم بذات الله سبحانه ، والتكوين إذا كان عين المكون فلا يكون التكوين أيضا غير قائم بذاته سبحانه .

الوجه الخامس

((و أن يصح القول بأن خالق سواد هذا الحجر أسود ، وهذا الحجر خالق للسواد ؛ إذ لا معنى للخالق و الاسود إلا من قام به الخلق و السواد)) : و قد قلتم : إن تكوين الشيء عينه فتكوين السواد عينه ، فما قام به السواد قام به تكوينه ؛ ((و هما واحد)) : يعني الخلق و السواد لأن الخلق تكوين و السواد مكون و التكوين عين المكون : ((فمحلها واحد)) : لأن اتحاد الحال يوجب اتحاد المحل ، فإن يكون الحجر محلا للسواد يوجب أن يكون محلا للتكوين و الخلق ، ((و هذا كله تنبيه)) ، يعني هذه الوجوه كلها تنبيهات ((على كون الحكم بتغاير الفعل و المفعول ضروريا)) : يقول : إن الحكم بتبائن التكوين و المكون بديهي ، والمقرر أن البديهي لا يحتاج إلى الدليل : بل لا يجوز إقامة الدليل عليه ، فهذه الوجوه التي ذكرها مشايخ الحنفية ليست بدلائل؛ بل تنبيهات على بداهة الحكم ، و لا يبعد أن يقال: و يمكن أن يكون بداهة البديهي نظرية ؛ لأن البديهي ذاته لا ثبوت صفاته له ، فلا حاجة إلى التنبيه على التنبيه ، فتأمل . ((لكنه ينبغي للعاقل أن يتأمل في أمثال هذه المباحث)) : يعني مسائل التكوين أن التكوين صفة حقيقية أو صفة إضافية أو أن التكوين عين المكون أو غيره ((و لا ينسب إلى الراسخين)) : أشار به إلى مشايخ الأشاعرة ، و منهم إمامهم ((من علماء أصول الدين)): يعني علماء علم التوحيد و الصفات ، فإن الكلام أصول من أقوى أصول الدين و علومه

((ما تكون استحالتة بديهية ظامرة)) : لأن قلوبهم و أذهانهم أرفع من أن لا يعقلوه و لا يعلموه ((على من له أدنى تميز)) : يعني في الفنون أو في الصواب و الخطأ ((بل يطلب لكلامهم محملاً)) : يعني مطلباً و مقصداً و معنى صحيحاً يحمل عليه كلامهم ((يصح محلاً لنزاع العلماء و خلاف العقلاء)) لئلا يلزم نسبة المكابرة إلى العلماء المحققين ، أقول : كان الشارح قدس سره إماماً في العلوم العقلية و النقلية وافر الديانة والجلالة، وكان كثير التواضع ، و إلا فلا حاجة إلى هذا البيان .

المحمول الصحيح لكلام مشايخ الأشاعرة

((فإن من قال)) : و هو شيخ مشايخ الأشاعرة ((التكوين عين المكون أراد أن الفاعل إذا فعل شيئاً فليس مهناً)) : يعني في الخارج بعد إحداث هذا الفعل ((إلا الفاعل و المفعول ، و أما المعنى الذي يعبر عنه بالتكوين و الإيجاد و نحو ذلك)) : من الإبداع و الاختراع

..... فهو أمر اعتباري يحصل في العقل من نسبة الفاعل إلى المفعول ، وليس أمرا محققا مغائرا للمفعول في الخارج ، لم يرد أن مفهوم التكوين هو بعينه مفهوم المكون لتلزم المحالات وهذا كما يقال أن الوجود عين الماهية في الخارج

((فهو أمر اعتباري يحصل في العقل من نسبة الفاعل إلى المفعول)) : يعني من إضافة المؤثر إلى الأثر ((وليس أمرا محققا ، مغائرا للمفعول في الخارج)) : بل مهنا جود واحد ، يستند أولا وبالذات إلى الفاعل والمفعول ، وثانيا وبالعرض إلى هذا الأمر الاعتباري المأخوذ عن أحدهما أو مجموعهما ، وهذا شأن الأمور الانتزاعية بالنظر إلى مناشيها ومباديها ، فلا يكون في الخارج إلا الفاعل و مفعوله ، وهو الأثر الصادر عنه في الخارج ، وأما المعنى المصدري بمعنى الإيقاع والتأثير فليس له وجود في العين ، وقد سبق مذهب الأشاعرة أن التكوين من الإضافات والاعتبارات وصفات الأفعال لا من الصفات النفيسة الذاتية ، فإذا نظرنا في التكوين والمكون على هذا لا يثبت إلا وجود المكون حقيقة ، وأما وجود التكوين فهو اعتباري إضافي .

((ولم يرد)) : شيخ مشايخ الأشاعرة ((أن مفهوم التكوين هو بعينه مفهوم المكون)) : يعني لم يرد أن مفهومهما واحد ، هذا لم يقل به عاقل فضلا عن فاضل و فضلا عن الشيخ ((لتلزم المحالات)) : يعني تلك المستحيلات أو ردها مشايخ الحنفية .

نظيره

((وهذا)) : يعني قول الشيخ أن التكوين عين المكون نظير قول القائل ، ((كما يقال إن الوجود عين الماهية في الخارج)) : إشارة إلى دفع الاستبعاد عن هذا القول بإثبات نظيره

..... بمعنى أنه ليس في الخارج للماهية تحقق و
لعارضها المسمى بالوجود تحقق آخر حتى يجتمعا اجتماع
القابل و المقبول كالجسم والسواد ؛ بل الماهية إذا كانت
فكونها هو وجودها لكنهما متغايران في العقل بمعنى أن للعقل
أن يلاحظ الماهية دون الوجود و بالعكس ؛ فلا يتم إبطال هذا
الرأي إلا بإثبات أن تكون الأشياء و صدورها عن الباري تعالى
يتوقف على صفة حقيقة قائمة بالذات

((بمعنى أنه ليس في الخارج للماهية ، تحقق و لعارضها المسمى بالوجود تحقق
آخر)) : و لأنه ثبت في موضعه أن الوجود من الأوصاف الانتزاعية مأخوذ من نفس
الشيء ، و ليس من الأوصاف الانضمامية ، و إلا لزم تقدم وجود المنضم إليه على
وجود المنضم ، فيلزم تقدم الشيء على نفسه في الوجود ، أو التسلسل أو الدور في
الوجودات ؛ بل وجوده في موضعه هو عين وجود موضوعه ((حتى يجتمعا)) : يعني
الماهية والوجود ((اجتماع القابل والمقبول كالجسم والسواد)) : القابل هو الجسم و
المقبول هو السواد ((بل الماهية إذا كانت)) : يعني تقرر و وجدت ((فتكونها)) :
يعني وجود الماهية ((هو)) : يعني المكون ((وجودها)) : يعني الماهية ((لكنهما
متغايران في العقل)) : يعني أن للعقل أن يتعقل الماهية دون الوجود ((بمعنى أن
للعقل أن يلاحظ الماهية دون الوجود و بالعكس)) : بمعنى أن يتصور الوجود دون
الماهية ؛ لأنه لا تضاييف بينهما ، و التلازم في التحقق دون التعقل ((فلا يتم إبطال
هذا الرأي)) : يعني إبطال مذهب الشيخ وأشياعه من أن التكوين عين المكون - ((إلا
بإثبات أن تكون الأشياء و صدورها عن الباري تعالى يتوقف على صفة حقيقية قائمة
بالذات)) : يعني بذات واجب الوجود

..... مغائرة للقدرة والارادة ، و التحقيق : أن تعلق القدرة على وفق الارادة بوجود المقدور لوقت وجوده إذا نسب إلى القدرة يسمى إيجادا له ، وإذا نسب إلى القادر يسمى الخلق و لا تكوين و نحو ذلك ، فحقيقته كون الذات بحيث تعلقت قدرته بوجود المقدور لوقته ، ثم تتحقق بحسب خصوصيات المقدورات خصوصيات الأفعال كالتصوير و التزويق و الأحياء و الاماتة و غير ذلك الى ما لا يكاد يتناهى . و أما كون كل من ذلك صفة حقيقية أزلية فمما تفرد به بعض علماء ما وراء النهر وفيه تكثير للقدمات جدا ، و إن لم يكن متغايرة . و الأقرب ما ذهب إليه المحققون ، منهم

((مغائرة للقدرة والإرادة)) .

الجواب من مشائخ الحنفية

و قد أثبت مشايخنا الحنفية بالأدلة اليقينية أن التكوين صفة حقيقية قائمة بذاته العلية مؤثرة مغائرة و مبانئة القدرة والإرادة ، و قد أبطلنا بالبراهين القاطعة مذهب الشيخ وأشياعه ، فكيف تقول : فلا يتم إبطال هذا الرأي ، هذا منك تعصب لا غير -

ميل من الشارح إلى مذهب الشائخ الأشعري بأنه أمر اعتباري

((والتحقيق)) : يعني و مذهب المحققين هم الأشاعرة يقولون : ليست صفة التكوين سوى صفة القدرة باعتبار تعلقها بمتعلق خاص على وفق الإرادة ((أن تعلق القدرة على وفق الإرادة)) : يعني في التخصيص بأحد الجانبين وأحد الأوقات ((بوجود

المقدور لوقت وجوده إذا نسب إلى القدرة يسمى إيجاداً له ((: من حيث أنه تعلق مفيد لوجوده ((و إذا نسب إلى القادر)) : من حيث أنه سبب لصدور المقدور و إن صدوره بإرادته و اختياره ((يسمى الخلق والتكوين و نحو ذلك)) : من الإبداع والاختراع و الفعل و الصنع و غيرها ((فحقيقته)) : يعني حقيقة التكوين أمر إضافي ((كون الذات)) : يعني ذات الواجب الوجود ((بحيث تعلقت قدرته بوجود المقدور لوقته)) : يعني في وقت وجود المقدور في علمه ((ثم تتحقق بحسب خصوصيات المقدورات)) : من الصورة و الرزق و الحياة و الموت و غيرها ((خصوصيات الأفعال كالتمثيل و التزيق و الإحياء و الإمامة)) : فالتصوير هو القدرة باعتبار تعلقها بالصورة ، و التزيق تعلقها بإيصال الرزق ، و الإحياء تعلقها بإيصال الحياة ، و الإمامة تعلقها بإيصال الموت ، و من هذا يقولون : صفات الأفعال إضافات ، و صفات الأفعال حادثة : لأنها عبارة عن تعلقات القدرة و التعلقات حادثة ((و غير ذلك إلى ما لا يكاد و يتناهي)) : من مقدراته المختلفة الأنواع لا تعد و لا تحصى .

مذهب ثالث ذهب إليه بعض مشايخ الحنفية الماتريدية

((و أما كون كل من ذلك)) : من الصفات الفعلية و فصول التكوين ، ((صفة حقيقية أزلية فمما تفرد به بعض علماء ما وراء النهر)) : بيان مذهب ثالث ذهب إليه بعض مشايخ الحنفية الماتريدية يقولون : إن التكوين ليس وصفاً إضافياً ؛ كما يقول به شيخ مشايخ الأشاعرة ، و لا صفة واحدة حقيقية ؛ كما قالت أكثر مشايخ الحنفية الماتريدية ، بل كل من الصفات الفعلية صفة حقيقية أزلية ((و فيه تكثير للقدماء)) : فيه نوع إيماء إلى أن التكثر ليس أمراً مناسباً .

تأييد المذهب الثالث

أقول : و أي مضائق فيه فإن نفس تعدد القدماء من جهة الأوصاف و النعوت

لا محيص عنه للقطع بوجود الصفات الحقيقية ، و هي قديمة أزلية لا محالة ، و أما قول مشايخ الأشاعرة و أكثر مشايخ الماتريدية إنما أثبتوا الصفات القديمة السبعة ، أو الثمانية للضرورة الموجبة لإثباتها ، فينبغي نفي ما لا ضرورة فيه ، فهو تحكم و مخالف لظاهر النصوص ((جدا)) : إنما قال : ” جدا “ لأن التعدد و التكثر يلزم القائلين بالسبعة و الثمانية أيضا ((و إن لم يكن متغائرة)) : يعني بالذات بل بالصفات .

رد على الشارح

أقول : قد سبق في بحث الصفات أن المحال هو تعدد الذوات القديمة لا تعدد صفات قديمة قائمة بذات قديمة ، و لا يخفى على عاقل أن إثبات الصفات القديمة ، إن كان مخلا بالتوحيد وجب نفي السبع و الثمانية أيضا ، و إن لم يخل فلا بأس في إثبات صفات غير متناهية ، فتأمل و لا تغفل .

ترجيح الشارح لمذهب المحققين من مشايخ الماتريدية والرد

على ترجيح الشارح

((والأقرب)) إلى التوحيد ((ما ذهب إليه المحققون منهم)) : يعني من مشايخ الماتريدية - و هم أكثرهم - أقول : هذا ليس بأقرب بل أبعد بل بمرات أبعد ، فإن ثبوت القدر المتناهي من الصفات العلية والكمالات الإلهية ثبوت بلا دليل ، والغرض ترجيح مذهب أكثر مشايخ الماتريدية على مذهب بعض مشايخ الماتريدية ، و ليس مراده اختيار هذا المذهب على سائر المذاهب ، فإن الأفضل عنده - قدس سره - مذهب مشايخ الأشاعرة ، و هو أن التكوين وصف إضافي و أمر اعتباري راجع إلى القدرة الحقيقية القديمة ، و مؤلفاته مملوئة به ، و ذلك لأن الشارح - قدس سره - أشعري الأصول و حنفي الفروع ، فتدبر .

..... و هو أن مرجع الكل إلى التكوين ، فإنه إن تعلق بالحياة يسمى إحياء و بالموت إماتة و بالصورة تصوير أو بالرزق ترزيقا إلى غير ذلك ، فالكل تكوين ، و إنما الخصوص بخصوصية التعلقات . و الإرادة صفة الله تعالى أزلية قائمة بذاته ، كرر ذلك تأكيداً و تحقيقاً لإثبات صفة قديمة لله تعالى تقتضي تخصيص المكونات بوجه دون وجه في وقت دون وقت

((و هو أن مرجع الكل)) : من الإحياء و الإماتة و التصوير و الترزيق و غيرها ((إلى التكوين فإنه إن تعلق بالحياة يسمى إحياء و بالموت إماتة و بالصورة تصويراً أو بالرزق ترزيقاً إلى غير ذلك فالكل تكوين)): فنفس التكوين على هذا المذهب ، يعني مذهب أكثر مشايخ الماتريدية صفة حقيقية قديمة أزلية : لكن فصولها وأنواعها أمور اعتبارية غير قديمة . ((و إنما الخصوص بخصوصية التعلقات)) : يعني و كلها عين التكوين مع فروق لحاظية ناشئة عن اختلاف تعلقاته باختلاف متعلقاته وبالله التوفيق و منه الوصول إلى التحقيق .

صية الإرادة: معناها والدليل عليها

((والإرادة صفة الله تعالى)) : ومعنى الإرادة عند العقل واضح إذ كل أحد منّا يعلم قبل صدور الفعل عنه أوترك يظهر في نفسه حالة ميلانية تقتضي ترجيح أحدهما على الآخر، و عبّر الشارح عنها فيما سبق صفة توجب تخصيص المقدور بخصوص وقت إيجاده ((أزلية قائمة بذاته)) : وإرادته قديمة تتعلق بكل موجود ولا تقدم فيه ولا تأخر ولا تبدل ولا تغير، و هي المشيئة عندنا واحدة في حقه سبحانه ، و مشيئة الكائنات تابعة لمشيئته قال الله سبحانه : ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ ((كَرَزَ ذلك)) : مع أنه مفهوم و معلوم مما سبق في أوائل بحث الصفات ((تأكيداً و تحقيقاً لإثبات صفة قديمة لله تعالى)) راداً على المخالفين من

الفلاسفة و المعتزلة و الكرامية ((تقتضي تخصيص المكونات بوجهٍ دون وجهٍ في وقت دون وقت)) : يعني أنها صفة زائدة مغائرة للعلم والقدرة مرجحة لبعض مقدوراته على بعضٍ ، و ذلك إنا وجدنا بعض أفعال الله سبحانه متقدمة و بعضها متأخرة ؛ مع أن ماتقدم يجوز في العقل أن يتأخر ، و ما تأخر يجوز في العقل أن يتقدم ، و افتقر ذلك التقدم والتأخر إلى مخصصٍ ، و هو لا جائز أن يكون نفس الذات الواجب الوجود ؛ فلأن نسبة الذات إلى الضدين واحدة ، و لا جائز أن يكون هو العلم ؛ لأن العلم بالوقوع تبع للوقوع ، فلو كان هو تبعاً لذلك العلم لزم الدور ، و لا جائز أن يكون هو نفس القدرة ؛ لأن خاصية القدرة الإيجاد ، و ذلك بالنسبة إلى جميع الأوقات على السوية ، فلا بد من إثبات صفة وراء هذه الصفات ، و تلك الصفة هي المسماة بالإرادة .

افترق الناس في إرادة الله إلى أربع، وهم الفلاسفة والمعتزلة، و

الكراميه، واهل السنة

و لما افترق النظار إلى أربع فرقٍ : فقوم يقولون : إن العالم وجد لذات الله سبحانه ، وأنه ليس للذات صفة زائدة البتة ، و لما كانت الذات قديمة كان العالم قديماً ، و كانت نسبة العالم إلى الله سبحانه مثل نسبة المعلول إلى العلة . و قوم يقولون : إن العالم حادث ولكنه حدث في الوقت الذي حدث فيه لا قبله و لا بعده لإرادة حادثة حدثت له سبحانه لا في محلٍ ، فاقترض حدوث العالم ، هؤلاء هم المعتزلة . و قوم يقولون : حدث العالم في وقت حدوثه لأرادة حدثت له في ذاته ، هؤلاء هم الكرامية . و قوم يقولون : حدث العالم في الوقت الذي تعلقت الإرادة القديمة بحدوثه فيه من غير حدوث إرادةٍ و من غير أن تتغير صفته القديمة هؤلاء هم أهل السنة و هم أهل الحق . فقال الشارح قدس سره راداً على الفرق الثلاثة :

..... لا كما زعمت الفلاسفة من : أنه تعالى موجب بالذات لا فاعل بالإرادة و الإختيا ؛ و النجارية من : أنه مريد بذاته لا بصفته و بعض المعتزلة من : أنه مريدة بإرادة حادثة لا في محل و الكرامية من : أن إرادته حادثة في ذاته ؛ و الدليل على ما ذكرنا الآيات الناطقة بإثبات صفة الإرادة و المشية لله تعالى مع القطع بلزوم قيام صفة الشيء به.....

الرد على الفرق الثلاث

وقال : ((لا كما زعمت الفلاسفة من أنه تعالى موجب بالذات لفاعل بالإرادة و الاختيار)) : اتفق أرباب الأديان على أن تأثير الباري سبحانه في إيجاد العالم بالقدرة و الاختيار ، و زعمت الفلاسفة أن تأثيره في وجود العالم بالإيجاب مثل تأثير الشمس في الإضاءة ، و تأثير النار في التسخين و الإحراق .

احتجاج الفلاسفة على عدم إرادة تعالى والجواب عنه

و احتجت الفلاسفة على عدم إرادته سبحانه بأن الله سبحانه لو كان مريداً ، فإرادته إن كانت قديمة يلزم قدم المراد ، و يلزم قدم العالم ، و يلزم زوال القديم مع أن ماثبت قدمه امتنع عدمه ؛ لأنها لا تبقى بعد الإيجاد و إن كانت حادثة يستلزم قيام الحوادث بذاته سبحانه ، و يفتقر إلى إرادة أخرى و دار أو تسلسل ، و الجواب : أنها قديمة متعلقة بزمان معين ، إذ الإرادة قد سبق المراد ؛ كما ان واحداً منّا يريد الحج بعد سنة أو سنتين ، فإذا كان وقته جزم الإرادة و حج ، و هذا ما أشاروا إليه بقولهم : الإرادة في الأزل متعلقة بتخصيص الحوادث بأوقاتها ، و الزوال إنما يرد على تعلقها بذلك الوقت ، و تعلقها حادث فلا يلزم

زوال القديم و الحق أن واحداً من العقلاء المعتمد بهم لم يصفوه بإنكار الإرادة القديمة الأزلية ، و إنما ينقل عن سفهاء الطبعيين و أوساخ الدهريين الذين هم كالأنعام بل هم أضل .

الرد على النجارية و أكثر المعتزلة

((والنجارية)) : يعني و لا كما زعمت النجارية أصحاب حسين بن محمد النجار و أكثر معتزلة الري وحواليها على مذهبه وهم مرغوثية و زعفرانية و مستدركة ، و افقوا المعتزلة في نفي الصفات من العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع البصر ، و وافقوا الصفاتية في خلق الأعمال ((من أنه يريد بذاته)): قال النجار تبعاً للفلاسفة : الباري سبحانه يريد لنفسه كما هو عالم لنفسه . أقول : هذا صدر من جهله ؛ لأنه لما دل الدليل على استناذ هذا العالم إلى موجود واجب الوجود لذاته فقد علمنا ذاته بعدما علمنا كونه مريداً ، والمعلوم غير ما هو غير معلوم ، فتدبر . ((لا بصفته)) : يعني لا بصفة الإرادة، هذا هو القول الثاني للنجار ، و أما القول الأول قد سبق ، يقول : معنى كونه مريداً أنه غير مغلوب و مقهور و لا مستكره ، و هذا أيضاً باطل لأن الجماد والنائم غير مقهور مع أنه ليس بمريد .

الرد على بعض المعتزلة

((و بعض المعتزلة)) : يعني و لا كما زعم بعض المعتزلة أبو علي الجبائي وأبوهاشم و عبد الجبار ((من أنه يريد بإرادة حادثة لافي محل)): يعني أن إرادة الله سبحانه قائمة بذاتها حادثة موجودة لا في محل ، و ذلك لأن إرادة الله سبحانه لو كانت قديمة أزلية وجب قدم المراد و هو مستحيل .

الرد على بعض الكرامية

((والكرامية)) : يعني لا كما زعمت الكرامية ((من أن إرادته حادثة في ذاته)) :
يعني أن إرادة الله سبحانه صفة حادثه يخلقها الله سبحانه في ذاته ، وذلك لأن إرادة
الله سبحانه ، لو كانت قديمة وجب تعدد القدماء ، وهذا قد أبطلناه سابقا .

احتجاج أهل السنة بالمنقول والمعقول

((والدليل على ما ذكرنا)) : من مذهب أهل السنة أن الله سبحانه مريد في
صنعه بإرادة قديمة أزلية قائمة بذاته سبحانه ، ((الآيات الناطقة بإثبات صفة
الإرادة والمشية)) : هذا رد على النجارية ، وقد احتج أهل السنة بالمنقول من قوله
سبحانه : ﴿ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ يريد الله ليبين
لكم ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ . واحتج أهل السنة
بالمعقول من وجهين : الوجه الأول : أن وجود كل حادث موقوف على تعلق الإرادة به ،
فلو كانت إرادة الله محدثة احتاجت إلى إرادة أخرى ولزم التسلسل . قيل : لقائل أن
يقول عليه : إنكم أثبتتم الإرادة لترجح أحد وقتي الإيجاد على سائر أوقاته ، وجوزتم
أن للقادر أن يرجح أحد مقدوريه على الآخر من غير مرجح ، فلم لا يجوز أن يصدر
عن القادر إرادة بلا مرجح ؛ ثم تصير تلك الإرادة مرجحة لما عداها ، فلا يلزم
التسلسل ؟ نقول في الجواب عنه : ولا شك أن من جَوَزَ للقادر أن يرجح أحد
مقدوريه على الآخر من غير مرجح يلزمه ذلك ، وأما من لم يجوزه فلا يلزمه - الوجه
الثاني : أن إرادة الله سبحانه لو كانت حادثة فلما أن تكون قائمة بذاتها أو قائمة
بذات الله سبحانه وكلاهما باطل - أما الأول فلأن الإرادة الحادثة صفة ، وقيام
الصفة بنفسها غير معقول ؛ ومع ذلك كان اختصاص ذاته سبحانه بالإرادة القائمة
بذاتها تخصيصا بلا مخصص ؛ لأن الإرادة إذا كانت قائمة بذاتها كانت نسبتها إلى
جميع الذوات ذات الباري سبحانه و ذوات الممكنات على السواء ، فكان اختصاص
ذاته بها تخصيصا بلا مخصص .